جان جاك روسو

المصلح الاجتماعي

تأليف

محمد عطية الابراشي
خريج جامعتي اكستر ولندن
والمفتش العام بوزارة المعارف

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
(١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م)

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله على آلائه ونعمائه ، وأصلى وأسلم على صفوة أنبيائه ، محمد صلى الله عليه وعلى أصحابه . وبعد : فيسرنى أن أقدم إلى القراء على اختلاف حظوظهم من العلم ، ودرجاتهم من الثقافة قصة رجل ، كان علما كبيرا من أعلام التربية ، وإماماً قديرا من أئمة السياسة ، وزعيما مخلصا من زعماء الإصلاح الاجتماعى ، ومدافعا غيورا عن حقوق الفقراء ، ومطالبا جريئا بالحرية والمساواة والإخاء ، ذلكم هو الفيلسوف الكبير ، والمصلح الاجتماعى الخطير « جان جاك روسو » .

ولكن روسو على ما له من جليل الأثر فى السياسة والتربية والاجتماع كان سيئ الحظ فى حياته ؛ فكثيرا ما عبس له الدهر ، وتنكرت له الحياة ، فعاش فقيراً مشرداً شقيا بائسا ، ثم ودع الحياة وقد شرب كأس البؤس والعوز والفقر حتى الثمالة ، ولعل هذه الحياة كان لها أثر فى تلك العبقرية الفذة التى عرف بها روسو فى زمانه ؟ فقد كتب كثيرا ، ونادى بآراء إصلاحية فى عصر كثر فيه العسف والاضطهاد ، واشتد الجور والاستعباد . وكانت الرقابة على ما يكتب ويتشر من أشد ما عرف فى عصر من العصور ، فعرض نفسه للنفى والهرب من الاعتقال . وطفق يتنقل من بلد إلى بلد ، ومن مكان إلى آخر ، فلم يجد للراحة سبيلا فى حياته ؛ لذلك عاش هذا الفيلسوف المربى معذبا كثير الآلام ، غير أن ذلك لم يفت فى عضده ، ولم يصرفه عن غايته وتأدية رسالته ، بل جهر بآرائه غير مكترث لما يناله من تعذيب أو تشريد ، شأن العظماء من الرجال . وفضلا عن ذلك قد عاش فى بيئة أظهر ما فيها الظلم والقسوة ،

والفساد والريبة ، فارتكب ما شاء أن يرتكب من الهفوات عامدا أو مضطرا . و إذا كانت قيم الرجال تقاس برجحان كفة الخير على كفة الشر فى ميزان التقدير ، فإن روسو قد قدم للإنسانية خيرا كثيرا . عاش مع الفقراء فعرف كيف يعيشون ، وعاش مع الأغنياء فأدرك كيف ينعمون ، ومايز بين هؤلاء وهؤلاء ، واستنبط من ذلك دروسا وعبرا ، تكيفت بها آراؤه .

وقد ألفت كتب كثيرة حول روسو باللغات الأوروبية ، وعنى الغربيون بدراسته وتحليل آرائه ، كما ألف روسو نفسه كتبا كثيرة ، ذكر فيها الشيء الكثير عن حياته وآرائه ، ومع هذا فقد كان من الصعب أن نصل إلى كلمة الحق فيه ، وأن نقول الحق الذى نثق به كل الثقة ، ويرتاح إليه ضميرنا فيما يتعلق بحياة ذلك الفيلسوف المصلح ، مما لا يدع مجالا للشك أو الحيرة . ولم يكن من اليسير الهين أن نحكم عليه حكما خاليا من المحاباة ، تتمثل فيه العدالة التى تطمئن إليها النفس ؛ فقد اختلفت فيه آراء الكتاب المعاصرين له ، وتباينت أحكامهم عليه ، فكان منهم الصديق الراضى ، والعدو الحاقد ، وكان منهم المعجب المدافع عنه بقلبه ولسانه ، والمبغض له الذى يقسو عليه ، ويهاجمه بحق وبغير حق ؛ لذلك كانت مهمة الحكم على روسو شاقة غير يسيرة ، تكلفنا فيها كثيرا من العناء ؛ لأن روسو لم يترك له صديقا فى حياته ، وكان فيه من الشذوذ ما حمله على أن يشتجر مع كل من عرف ، وبالرغم من كل هذا قد تتبعنا كل ما كتب له أو عليه ، وقرأنا مناقشاته واعترافاته ، ولم يكن غرضنا إلا الوصول إلى الحقيقة ، التى يمكن الاعتماد عليها ، والاطمئنان إليها .

وقد حاولت أن يكون أسلوب الكتاب سهلا ، فجعلته قصة تتحدث عن حياة روسو وأخلاقه فى طفولته وغلومته ، وشبابه ورجولته . ولم أغفل فى هذه القصة

الحديث عن رسائله التى كان لها شأن عظيم فى حياة الإنسان وحريته، والتى كانت من أسباب تلك الثورة الهائلة، التى اهتزت لها أركان العالم، وهى الثورة الفرنسية، التى غيرت وجه التاريخ، وتقررت بعدها حقوق الإنسان. ومن هذه الرسائل رسالته فى « أثر العلوم والفنون فى الأخلاق »، ورسالته فى « عدم المساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان»، ورسالته فى الاقتصاد السياسى، ورسالته فى العقد الاجتماعى، ثم اعترافاته. ولكى يتمكن القارئ من نطق الأعلام والأسماء الإفرنجية التى وردت فى هذا الكتاب نطقا صحيحا كررتها مكتوبة باللغتين الإنجليزية أو الفرنسية على الهامش. ولم أتعرض لذكر آراء روسو فى التربية هنا؛ لأنى وجدت من الإنصاف لهذا المربى العظيم الشأن أن أتناول هذه الآراء القيمة بالدرس فى كتاب مستقل ألفناه قبل هذا، هو: «جان جاك روسو وآراؤه فى التربية والتعليم»؛ فقد شغل روسو فى عالم التربية أذهان العلماء، واحتل بين المربين المكانة السامية.

ولصغر حجم الكتاب الحالى لم أتمكن من بحث كل رواية من رواياته، أو كتاب من كتبه. وقد ذكر الدكتور محمد حسين هيكل باشا الكثير عن رواياته وكتبه فى أول كتاب له ظهر باللغة العربية عن جان جاك روسو سنة ١٩٢٢.

وإنى أهدى هذا الكتاب إلى كل باحث حر الرأى والفكر، وكل مصلح اجتماعى بمصر والشرق، مستمدا العناية من الله القدير، راجيا منه السداد والتوفيق، إنه سميع مجيب.

القاهرة فى: ٢٦ من ربيع الأول سنة ١٣٦٥ هـ
٢٨ من فبراير سنة ١٩٤٦ م

محمد عطية الابراشى

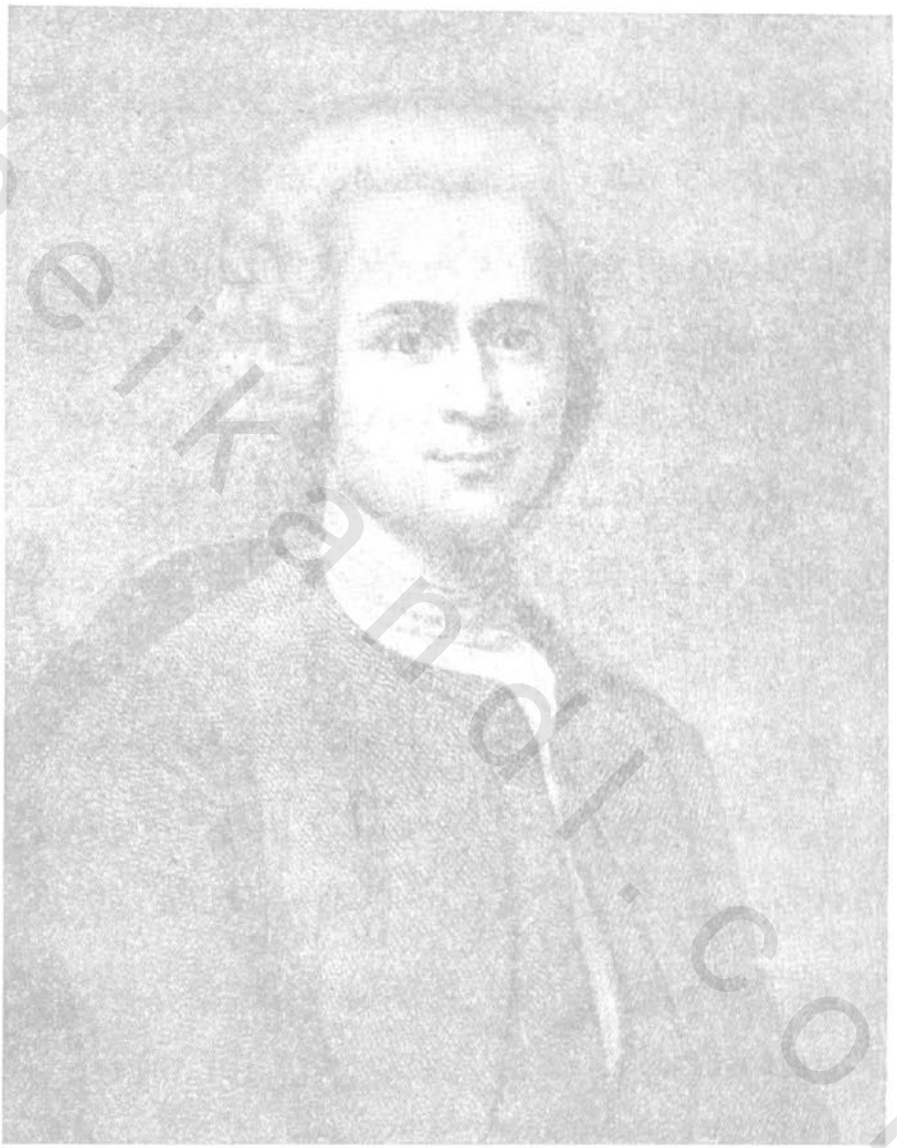

جان جاك روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨ م)
المربي والمصلح الاجتماعي

obeikandl.com

طفولته وحياته الأولى

حوالى سنة خمسين وخمسمائة وألف من الميلاد اضطر بائع الكتب (ديدير روسو) أن يرحل من موطنه الأصلى باريس ؛ ليقيم بمدينة جنيف بسويسرة . وكان سكان جنيف فى ذلك الوقت عشرين ألفا . فى هذا الوطن الجديد اشتغلت أسرة (ديدير روسو[1]) وأبناؤه من بعده بالتجارة ، وعرفت تلك الأسرة فى المجتمع السويسرى بتلك المدينة الجميلة ، مدينة جنيف .

ولكى نعرف (جان جاك روسو) المربى العظيم ، والمصلح الاجتماعى الكبير يجب أن نعرف شيئا عن نسبه .

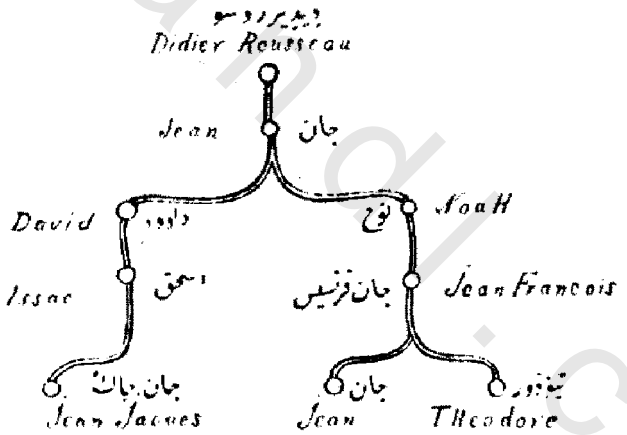

و بالنظر إلى النسبة السابقة ترى أن جان جاك روسو هو ابن إسحق بن داود ابن جان بن ديدير روسو .

وفى الثامن والعشرين من يونيو سنة ١٧١٢ ولد جان جاك روسو بمدينة جنيف بلد العلم والحرية ، والأدب والإصلاح . وكان والده إسحق يشتغل معظم الوقت صانعا للساعات، و بعض الوقت معلما للرقص . وفى اليوم الثامن من ولادة جان جاك فقد أمه

(١) Didier Rousseau

(سُوزَان بِرْنار) ، وقد كانت من أسرة دينية بجنيف . وفى ذلك يقول روسو : «لقد ولدت ضعيفا مريضا ، وفقدت أمى حياتها بولادتى . فبولادتى بدأ سوء حظى» .

و بعد وفاة أمه قامت عمته بتربيته ، فوجد منها عناية وعطفا لم ينسهما لها طول حياته . وكان الجيران والأقارب يعطفون عليه كل العطف ليتمه فى طفولته . وكثيرا ما كان يجلس مع عمته يلحظها وهى تغزل بيديها ، و يصغى إليها وهى تغنى تلك الأغانى العذبة الجميلة التى كان لها كل الأثر فى نفسه . وفى كهولته وشيخوخته لم ينس عمته ، فكان يذكرها بقلبه ولسانه وقلمه ، ذكرى كلها حب وتقدير . وقد تذكر معاملتها الجميلة له ، ووصفها وصفا مسهبا فى كتابته ، وتذكر الأغانى الشجية التى كان يسمعها منها ، وكانت الدموع تتساقط من عينيه حينما يحاول فى شيخوخته أن يعيد بصوته الضعيف المتهدج تلك الأغانى الفطرية الموسيقية الجميلة .

كان أبوه إسحق رجلا كثير الخيال ، سريع التأثر ، محبا لنفسه ، يميل إلى العاطفة أكثر من ميله إلى العقل ، ويندفع وراء الملذات أكثر من تفكيره فى الفضيلة . عدّه ابنه جان جاك أحسن الآباء[1] ، وعدّه المثل الأعلى له ، وأعجب به كل الإعجاب ، واحترم مبادئه وآراءه كل الاحترام .

وكان لجان جاك روسو أخ أكبر منه تعلم صناعة الساعات مع أبيه ، ثم اختفى وهو شاب ولم يعد ثانية ، ولم يره أحد بعد اختفائه .

تعلم الابن الأصغر جان جاك القراءة وهو فى السادسة من العمر ، ولم يعن أبوه العناية التامة بتربيته ، فتركه فى البدء لأقاربه ليعنوا بتربيته ، ثم تركه ونفسه ليعنى بشئونه الخاصة ، وقد احتفظ الأب لنفسه بالمال الذى ورثه جان جاك من أمه ، واقتسمه معه فيما بعد حينما كبر .

---

(١) The best of fathers

علمه أبوه القراءة ، وقرأ معه كتبا خرافية كانت لأمه . وقد اعتاد الأب والابن أن يجلسا كل ليلة بعد العشاء للقراءة حتى منتصف الليل حينا ، وحتى مطلع الفجر أحيانا ، فكانا يستمران فى القراءة إذا وجدا لذة حتى يسمعا تغريد الطيور فى الصباح، فيذهبا إلى الفراش ليناما قبل شروق الشمس . وفى تلك الأيام التى كان يتصل فيها الأب كل الاتصال بطفله الصغير كان الأب يتذكر زوجه (سُوزَان) فيخاطب ابنه جان جاك : « دعنا نتكلم عن أمك » . فيجيبه الابن «نعم يا أبى ولكننا سنبكى». فكان الأب والابن يبكيان كثيراً لهذه الذكرى المؤلمة . أخذ الأب يقرأ لابنه ، والابن يقرأ لأبيه كل ليلة فيما لديهما من كتب قصصية ، حتى أتما قراءتها من أولها إلى آخرها . لم يكتف الغلام بقراءة تلك المجموعة التى ورثها عن أمه ، بل استعار مجموعة أخرى من أحد أقاربه من الكتب التاريخية والعلمية والدينية ليقرأها نهارا فى الوقت الذى يجد فيه أباه مشغولا بصنع الساعات وإصلاحها . كل هذا وعمره عشر سنوات . وكان أحب الكتب لديه ، وأكثرها أثرا فى نفسه كتب (بلوتارك)[1]. قرأ كثيرا عن الوطنية والحرية ، والطبيعة والإنسانية ، والروح الديمقراطى ، والاستعباد والعبودية ، حتى امتلأ قلبه بحب الحرية ، والدفاع عن الإنسانية ، ومقت الذل والعسف والظلم .

انتهت تلك الأيام السعيدة بحادثة محزنة ؛ فذات يوم من سنة ١٧٢٢م تشاجر أبوه مع أحد الضباط فى جنيف ، وكان هذا الضابط قريبا لأحد القضاة الذين حولت عليهم هذه القضية للنظر فيها . فخوفا من أن يضطهد ، أو يحكم عليه ظلما ، أو يسجن بغير مبرر ، هرب من جنيف بعد تلك الحادثة بيومين ، كى لا يعطى الفرصة لخصمه

---

(١) Plutarch's Lives : بلوتارك كاتب إغريقى ، لا يعرف مولده بالتحديد ، وقد وصل إلى أوج عظمته فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى . (المترجم)

للتحكم فيه ، أو القسوة عليه فى الحكم والعقوبة ، وأخذت الأسرة تنتظر عودته عبثا، ولكنه لم يعد ؛ هربا من الظلم، فحكم عليه غيابيا بطلب المغفرة من الله ، وطلب العفو من الضابط ، والسجن ثلاثة أشهر ، وغرامة قدرها اثنا عشر جنيها ونصف جنيه . مكث الأب بعيدا عن جنيف ، وأقام فى قرية نائية تدعى (نيُون[١]) ، واستمر فى هذه القرية مختفيا عن الأنظار . وبعد ثلاث سنوات من فراره تزوج من تلك القرية ، وقضى بها البقية الباقية من حياته .

بعد أن فرّ الأب خوفا من ظلم القضاء والتأثير فيه عنى بجان جاك روسو خال له يدعى (برْنَارْد[٢]) ؛ كان مهندسا بمدينة جنيف ، فأرسله مع ابن له إلى قرية (بُوسِى[٣]) ؛ ليتلقيا علومهما على الأستاذ (لَمبَرْسِير[٤]) وهو أستاذ مخلص فى مهنته ؛ يقيم بتلك القرية القريبة من جنيف . مكث روسو مع أستاذه سنتين وقيل خمسا . وقد حدث فى أثناء تلك المدة حادثة تركت أثرا كبيرا فى نفسه ؛ فذات يوم اتهم بكسر أسنان مشط[٥] ، فاحتج على هذا الاتهام بأنه لم يكسر أسنان المشط ، ودافع عن نفسه بغير جدوى ، وعومل كما يعامل المذنب ، وعوقب على ذنب لم يرتكبه ، فتألم من هذه العقوبة الألم كله ، ولم ينس تلك الحادثة كما ينسى الغلمان عادة ما يحدث لهم . وقد كتب روسو عن تلك الحادثة حينما بدأ يكتب قصة حياته بعد ذلك بخمسين سنة، ووصف ما لحقه من ضرر ، وما شعر به من خجل ، وما أصابه من الظلم والذلة ، وقد وصف هذه الحادثة بقوله . «إنى أشعر وأنا أكتب هذه القصة بأن درجة النبض

---

(١) Nyon (٢) Bernard (٣) Bossy (٤) M. Lambercier

(٥) وكان هذا المشط للآنسة (لمبرسير) أخت معلمه ، وكانت تعطف عليه ، وتحسن معاملته ، فأحبها روسو حبا جما ، وهى فى الأربعين من عمرها ، وهو فى العاشرة من العمر . وكانت تلك الحادثة سببا فى تركه أستاذه ، وفى تشرده بعد تلك الدراسة المنتظمة المثمرة .

لدى لا تزال مرتفعة . وستظل هـذه الذكرى فى نفسى إلى الأبد ، ولو قدر لى أن أعيش مائة ألف سنة ، فقد نقشت تلك التجربة القاسية ، تجربة الظلم والقسوة على صفحات قلبى ، وكل فكرة تتصل بتلك الحادثة تعيد إلىّ شعورى الأول . وقد تملكنى هذا الشعور حتى أصبح قلبى يتقد حرارة حينما أرى أو أسمع شيئا فيه ظلم ، مهما يكن ذلك الشىء ، وفى أى مكان حدث . فكأنى كنت الضحية . ولو رأيت ظالما يعتدى على إنسان ظلما لعاقبت ذلك الظالم المعتدى فى الحال ، ولا أبالى بما يحدث لى ، ولو كان فى ذلك الحكم على بالموت مائة مرة » .

فروسو كان سريع التأثر ، قوى الذاكرة ، قليل النسيان ، ميالا إلى الحزن . ولا عجب؛ فقد ورث عن أمه قوة فى الوجدان ، ورقة فى العاطفة ، وشدة فى التأثر . وقد شعر روسو بعد هذه الحادثة بأن أيام السعادة قد انتهت ، وأن سرور الطفولة قد انقضى . مكث روسو مشردا ستة أشهر ، رجع بعدها (سنة ١٧٢٤م) إلى بيت خاله « برنارد » ، فعنيت به زوج خاله[1] العناية كلها ، وعاملته بكل عطف وشفقة . وأخذت الأسرة بعد ذلك تفكر فى مستقبله ، وفى العمل الذى يجب أن يعمله ، وفى المهنة التى يجب أن يتعلمها ، فأرسل وعمره ثلاث عشرة سنة إلى كاتب من الكتاب ليتعلم منه الكتابة ، وتسجيل العقود على كره منه ، فأخذ يعمل مكرها ، ثم زادت كراهته للعمل ، حتى بدأ أستاذه يحتقره ويعنفه ، وقد عده معلمه غبيا أو جحشا ، وعيّره بالغباوة مع أن خاله أخبره بأنه من أذكى الأذكياء .

لم ينجح روسو فى عمله الكتابى فأعيد إلى خاله ، فتألم جان جاك لإخفاقه فى عمله ، فأرسل ثانية فى ٢٦ من أبريل سنة ١٧٢٥م إلى نقاش ليتعلم منه فن النقش .

---

(١) Madame Bernard

وكان ذلك النقاش قاسيا فى معاملته للغلمان ، لا يعرف الرحمة ، والرحمة لا تعرفه ، فأخذ يقسو على روسو، ويعامله بشدة وقسوة ، ويضربه بغلظة، حتى ساء خلق الغلام، وتعلم الكذب والسرقة ، واعتاد الجبن والخبث والمكر ؛ خوفا من فظاظة معلمه . ولقد أحب الغلام فن النقش ، ذلك الفن الجميل فى البدء ، ولكن ظلم معلمه جعل حياته شقية بائسة . وقد حدث فى سنة ١٧٢٨ — وعمره إذ ذاك ست عشرة سنة — أن خرج فى يوم الأحد مع بعض أصدقائه فى رحلة خارج جنيف ، ثم تأخر فى المساء، وعاد بعد أن أغلقت المدينة أبوابها ، فتذكر ما حدث له من سوء المعاملة من قبل ؛ فقد خرج ذات مرة فى رحلة إلى الغابات ، ثم عاد متأخرا ، فسمع صوت أبواب المدينة وهى توصد ، فجرى المسكين خائفا ليلحق الأبواب قبل إغلاقها ، وأخذ يصيح بأعلى صوته إلى الجنود؛ كى ينتظروا. كل ذلك بغير جدوى . فقبل أن يصل إلى الجسر بعشرين خطوة ، رفع الجسر ، وامتنع الدخول . فلما ذهب فى اليوم التالى إلى أستاذه استقبله بقسوة لا يمكن أن تحتمل ، وأخذ يضربه ضربا مبرحا . فلما رأى أبواب الجسر قد رفعت وعجز عن دخول جنيف تذكر ما لحقه من ألم ، وأخذ يرتعد ويفكر فى النتيجة ، وشرع يسأل نفسه: كيف يقابل أستاذه فى اليوم التالى؟ وماذا يقول له ؟ فصمم على ألا يعود إليه مطلقا ، وهرب كارها النقش وأستاذه ، وقضى ليلته فى الخلاء. وفى الصباح ودع أصدقاءه ، ووجد نفسه حرا ، وحسب العالم متسعا له ، مستعدا لقبوله، مرحبا به ، وفكر فى حياة حرة سعيدة ، وظن أن تلك الحياة الجميلة تنتظره ، فأخذ يحوم حول جنيف أياما ، ويعيش مع من يعرفهم من إخوان لا يعرفون إلا الشر والرذيلة ، فساءت أخلاقه ، وانحط مستواه ، وأصبح مثلهم فى الأخلاق والآداب .

روسو فى غلومته وشبابه

لنذكر هنا حادثتين حدثتا لروسو وهو غلام ، فربما تساعدنا هاتان الحادثتان فى معرفة شىء عن حياته وهو غلام ؛ فقد اعتاد فى كل يوم أحد أن يقضى هذا اليوم بقرية « باكوس[١] » بمنزل عمته وهى زوج (المستر فازى[٢])وهو رجل كان يشتغل بصباغة الملابس . وقد حدث ذات يوم أن كان روسو فى حجرة تجفف بها الملابس ، يلحظ الأسطوانات الساخنة التى تكوى بها الملابس ، فأعجب بمنظرها الإعجاب كله ، فوضع أصابعه فوقها ؛ ليرى ماذا يحدث لها ، وأخذ يحرك أصابعه إلى أعلى و إلى أسفل فوق إحدى الأسطوانات ، وقد حدث فى هذا الحين أن أدار الصباغ العجلة بسرعة ، فأصابت الأسطوانة أطراف أصابع روسو ، حتى كادت تهشمها ، وانتزع منها الأظفار ، فصاح صياحاً عالياً من شدة الألم ، فأرجع الصباغ العجلة فى الحال ، وأخذ الدم يتدفق من أصابع الغلام ، وأسرع إليه زوج عمته ، وعانقه ، وتوسل إليه أن يهدئ من روعه ، ويقلل صياحه ، فتأثر الغلام بتوسله ورجائه ، وضبط نفسه ، وسكت فى الحال مع شدة تألمه ، فأسرع به زوج عمته إلى الترعة ؛ ليغسل له أصابعه وأوقف الدم ، وتوسل إلى روسو ـ والدموع تتساقط من عينيه ـ ألا يخبر أحداً بما حدث ، فوعده بذلك ، ووفى بوعده ، ولم يعرف أحد السبب الحقيقى لهذه الحادثة ، وكتم السر فى نفسه عشرين سنة ، وأصر على أن يقول إن حجراً كبيرا وقع على أصابعه فهشمها . واستمر فى فراشه أكثر من ثلاثة أسابيع ، ومكث شهرين لا يستطيع أن يعمل بيده شيئا ، ولم يدر أحد السبب فى هذا الأثر الذى تركته هذه الحادثة فى أطراف أصابعه على حقيقته .

---

(١) Paquis (٢) Mr. Fazy

أما الحادثة الأخرى ـ وهى من هذا النوع أيضاً ـ فقد كان روسو يلعب مع أحد زملائه[١] بالكرة فى الملعب ، فتشاجرا وهما يلعبان ، وتقاتلا معاً ، وفى أثناء القتال ضربه زميله على رأسه ضربة قوية ، كادت تحطم رأسه ، وتخرج مخه ، فوقع على الأرض وقد أغمى عليه ، وبدأ الدم يسيل من شعره ، فتأثر زميله تأثراً شديداً ، وظن أنه قتل ، فألقى بنفسه عليه ، وضمه بحنان بين ذراعيه ، ودموعه تتساقط على خديه ، وصرخ صراخاً عالياً ، فعانقه روسو بكل قوة ، وأخذ يبكى كما يبكى زميله ، بكاء يدل على شعور كل منهما نحو الآخر ، ثم حاول زميله عبثا حبس الدم المتدفق. فلما رأى الضارب أن منديليهما لم يكفيا لوقف الدم أسرع به إلى أمه ، فتألمت الأم المسكينة حينما رأته بهذه الحال ، حتى كاد يغمى عليها من شدة التأثر ، ولكنها تمالكت نفسها وضبطت شعورها ، حتى استطاعت أن تغسل جرحه جيداً ، وتنظفه وتضمده ، مستعملة كل ما عرفته من علاج وإسعاف . وقد تأثر روسو حينما رأى الأم تبكى ، وابنها يبكى ، وكان لهذا المنظر أثر كبير فى نفس روسو ، ونظر إليهما مدة ليست بالقصيرة ، نظرته إلى أمه وأخيه . ومن هنا نرى أن روسو كان كثير الشغب والنزاع والحوادث فى غلومته .

وذات يوم ذهب روسو إلى قرية « كُنْفِجْنُون[٢] » بمقاطعة «سافوى» بإيطاليا ليتصل بدير كنفجنون . وكان الكهنة فى ذلك الدير معروفين بآرائهم الكاثوليكية ، فأخذه الكاهن (بُونْتفير[٣]) وأكرمه وأحسن إليه . وأخذ يزوده بآرائه الدينية ، وهى ضد الآراء البروتستانتية التى كان يدين بها روسو ، وفى ذلك يقول : «إنى كنت أكثر علما من الكاهن (بونتفير) . ومع أنى كنت ضيفا محبوبا لم أتمكن

---

(١) كان يدعى بلنس Plince (٢) Confignon (٣) M. Pontverre

من أن أكون عالما دينيا متضلعا . وقد خجلت أن أطالب هـذا المضيف الكريم بالسكوت » . فروسو كان يصغى إلى هذا الكاهن وآرائه ، وادعى بأنه كانت لديه رغبة قوية فى دراسة المذهب الكاثوليكى ، وكان من نتيجة الاتصال بهـذا الكاهن وإعجابه بروسو أن أرسله إلى « مدام دى وَارِنْز[١] » بمدينة « آنسى[٢] » لتساعده فى أن يثقف نفسه ثقافة دينية قديمة ، فعجب عند رؤيتها كل العجب ؛ إذ وجـدها سيدة صغيرة السن ، حسنة القوام ، جميلة الابتسام ، فأعطاها الرسالة التى أرسلها الكاهن معه ، ويده ترتعد خجلا وخوفا . وفى تلك الرسالة عرف الكاهن هذه السيدة بروسو الشاب . فقالت له : «أيها الشاب إنك صغير على هذا التشرد فى هذه السن، ادخل وأمرهم بأن يقدموا لك طعام الإفطار . وسأتحدث معك فيما بعد». فشعر روسو بأن الدين الذى تنادى به ، وترشد إليه سيدة كهذه السيدة لابد أن يؤدى إلى الجنة. فماذا ينبغى أن يفعل الآن ، ولم يجد بعد حرفة من الحرف، أو مهنة من المهن، ولم يكن لديه مجال للتمرن الطويل على أى حرفة ؟ وقد حدث ذات مرة أن نصح له أحد الحاضرين فى أثناء الغداء بالذهاب إلى مدينة « تُورين[٣] » بإيطاليـا ، ليتعلم التعليم الروحى ؛ ليكون واعظا من الوعاظ ،ومرشدا من المرشدين ، ورجلا من رجال الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد ، فتألم الشاب فى البدء ، وبعد بضعة أيام سافر إلى «تورين» وهو مملوء بالرغبات، ومملوء بالآمال ،وفكر فى كثير من المشروعات، وتخيل سعادة قريبة، وأعياداً مقبلة ، وأخذ يتخيل كثيراً من الألعاب فى الغابات، وكثيراً من الفواكه اللذيذة فى البساتين ، وكثيراً من المحادثات تحت ظل الأشجار ، وكثيراً من دلاء اللبن والقشدة على الجبال ، وفكر فى الهدوء والانشراح والسرور بالذهاب إلى حيث لا يعلم الإنسان له مكانا .

---

(١) Madame de Warens (٢) Annecy (٣) Turin

و بعد أن سافر بضعة أيام على قدميه وصل إلى تورين ، وقبل فى الدير ،ليدرس دراسة دينية كاثوليكية عالية ، وفتحت له أبواب الدير ثم أقفلت ، وفى ذلك يقول فى الجزء الرابع من (إميل) متحدثا عن شخص غائب ، وقد صرح فى النهاية بأنه ذلك الشخص .

كان روسو وهو شاب فى مدينة إيطاليا منفيا من بلاده ، فوجد نفسه فى منتهى الفقر والحاجة ، وقد ولد تابعا المصلح الدينى السويسرى العظيم «جَن كَلْفِن[1]» ، ولكن حمق روسو الشاب اضطره إلى الهرب من بلاده ، ليعيش فى بلاد الغربة ، وليس لديه شىء من المال ، وقد غير مذهبه البروتستانتى من أجل كسرة من الخبز ، فذهب إلى ذلك الدير بتُورين . وسمح له بالدخول ، وتعرف فيه بقوم كان يعتقد فيهم كل خير ، ولا يشتبه فى أخلاقهم مطلقا ، ولكنه رأى فيما بعد أخلاقا شاذة ، وسلوكا فاسدا ، وشعر بأنه ضحية لهذا الشر ، ووجد هناك أربعة أو خمسة من الأشرار الذين اعتادوا الانتقال من دير إلى دير ، والتنقل فى الأديرة بين أسبانيا و إيطاليا ، يدّعون فى كل مكان أنهم كانوا من اليهود أو المغاربة ، وقد أصبحوا من المسيحيين الغُيُر على المسيحية ، كى يجدوا لهم طعاما ومسكنا ، وارتكبوا من الرذائل وذكروا من الأحاديث الشائنة ـ وهم فى خلوتهم ـ مايخالف ماتلقوه من التعليمات الدينية من الكهنة.

ودّ روسو لو ينجو بنفسه من هذا الدير المغلق، ولكن كيف النجاة، وما السبيل إليها ؟ أخذ يشكو مر الشكوى ، ولكن لم يكترث لشكاته أحد ، واستمر تحت رحمة هؤلاء الطغاة الذين عاملوه كما يعامل المجرم، لأنه لم يشاركهم فى إجرامهم وعبثهم. شعر روسو بالقسوة والعنف والظلم ، فتألم الألم كله ، وبكى بكاء المظلوم ، وغضب

---

(١) John Calvin : ولد سنة ١٥٠٩ ، وتوفى سنة ١٥٦٤ م .

غضب من يشعر بالظلم، غضب من تملكه الظلم، وأخذ يدعو الله ويتوسل بالإنسان، ويشكو لكل من يراه ، فلم يسمع له دعاء، ولم يصغ إليه أحد ، ولم ير حوله إلا هؤلاء المجرمين الذين يراقبونه عن كثب، ويهينونه ويضحكون منه ، مريدين بذلك أن يتبعهم فى هفواتهم ، ويشاركهم فى أخطائهم .

وقد كاد يقضى على هذا الشاب الشقى البائس، لولا أن قيض الله له كاهنا برا رحيما زار هذا الدير لعمل من الأعمال ، فوجد روسو الفرصة فى استشارته سرا حيث لا يعلم به أحد . وكان الكاهن فقيرا يحتاج هو نفسه إلى المساعدة ، ولكن روسو كان أشد حاجة إلى المساعدة من الكاهن ، فلم يتردد الكاهن فى مساعدته على الفرار من هذا الجو الموبوء مخاطراً بنفسه. وبهذه الوسيلة هرب روسو من الدير ليعود إلى الفقر والحاجة، ووجد نفسه وحيدا تائها فى شوارع تورين، ووجد نفسه نائما على الطوار ، كالقطة الضالة المشردة، ولم يكن فى جيبه سوى ثروة ضئيلة إن صح أن نسميها ثروة، وهى عشرون فرنكا.

أخذ روسو يقاتل الحياة والحياة تقاتله ، وقد ظن أنه فاز بالنصر المبين ، بفراره من جو الذل والعبودية ، وخروجه إلى الحياة الحرة التى يعشقها كل العشق ، ويحبها كل الحب . وسرعان ما نسى أمر هربه من الدير، وهرب الكاهن الذى سهل له الفرار. ظن روسو أن لديه الذكاء والمهارة فى أن يشق طريقه فى الحياة بسهولة ، ولكن آماله قد ضاعت ، وآراءه الخيالية قضت على كل شىء . وفى النهاية وجد مأوى فى منزل امرأة فقيرة قذرة الملبس ، خشنة المعاملة ، كثيرة الحلف ، تؤوى الخدم الذين يطردون من أعمالهم، فى سبيل درهم يدفع أجرا فى الليلة الواحدة ، وكانت هى وأطفالها الستة ومن يأوى إلى منزلها من الخدم ينامون فى حجرة واحدة ، ولكنها مع هذا كانت أمينة رقيقة القلب ، تعطف على هؤلاء المساكين بقدر ما تسمح به حالها .

روسو فى عهد الشباب

مكث روسو خالياً من العمل ، متعطلا ، يجول فى الطرق كالضال ، ليمتع نفسه بالمناظر المختلفة. وكان يذهب كل صباح إلى الكنيسة ؛ ليصغى إلى الموسيقا، واستمر كذلك حتى أنفق كل ما معه من النقود ، وأصبح لا يجد طعاما ولا وقاية حتى أوشك أن يموت جوعا ، فتذكر الكاهن الذى أحسن إليه ، ورجع إليه ، فرحب به، وعطف عليه ، وتذكر ما قام به نحوه من مساعدة ، وتذكر الكاهن ما قام به من إنقاذ هذا الشاب المسكين .

وكان هذا الكاهن محبا للإنسانية بفطرته ، يعطف على الفقراء مع فقره ، ويؤثرهم على نفسه مع خصاصته ، يشعر بآلامهم ، ويشاركهم شعورهم ، فرحب بروسو الشاب كل الترحيب . أقام معه روسو ، وشاركه فى معيشته ، وفى دخله المحدود . وقد كان هذا الدخل يكفى اثنين بصعوبة ، وأخذ الكاهن يعلم روسو ويسليه ، يعلمه الصبر وتحمل الآلام ، وأعجب به الكاهن ، وأخذ يسأله ، ويتحدث معه ، فرأى أن قلبه بدأ يقسو لما لحقه من سوء حظ ، وأن الفخر الذى كان يفخر به قد تحول إلى ألم وضغينة وحقد ، حتى أصبح ذلك الفتى الضال لا يرى أمامه إلا النفاق والرياء ، والقسوة والظلم بين بنى الإنسان ؛ فالشقاء الذى حدث له ساقه إلى الدمار ، ساقه إلى سلوك رجل فظ . رأى الكاهن الخطر الذى يحدق بذلك الشاب المسكين ، ورأى طريق النجاة أمامه ، فبدأ الكاهن يعمل ، وكله رغبة فى إنقاذ هذا المسكين وتهذيبه ، وإعادته إلى الفضيلة . ولا عجب ؛ فقد خطفه من قبل ، وسهل له الخروج من براثن الرذيلة . تشجع الكاهن ، ووضع ذلك الغرض أمام عينيه، وأقدم على إصلاحه بغيرة ، وقلب مملوء بحب الخير ، ولم يضع مجهوده سدى . ولكى يحفظ هذا الشاب المسكين البائس من الموت الأدبى الذى كاد يهدده أخذ يحيى فيه الأمل،

ويذكر له رأيه الحسن عنه ، ويبين له المستقبل السعيد الذى ينتظره إذا استعمل تلك المواهب الفطرية التى وهبها الله له استعمالا حقا. وبدأ يشجعه بذكر الأعمال النبيلة التى قام بها غيره ، وأخذ يذكر له قصصا عن أعمال البطولة والعظمة والنبل ، وأحيا فيه الرغبة فى القيام بمثل تلك الأعمال النبيلة ، وبدأ يستدرجه ويوحى إليه ، ويسير معه بالتدريج ، وينتقل به من حياة العطل إلى حياة العمل ، ومن حياة التشرد إلى الحياة المنظمة ، ومن حياة الرذيلة إلى حياة الفضيلة ، واختار له بعض الكتب وأحسن اختيارها ، وادعى أنه فى حاجة إلى أن يقتبس منها أشياء عينها له ، وطلب منه قراءتها وكتابتها. وبهذه الوسيلة غذى فيه الشعور النبيل ، وأخذ قلبه يعود إلى الحياة الفطرية ، وعلمه بطريق غير مباشر ، بطريق الإيحاء ، قراءة هذه الكتب ، والانتفاع بما فيها من جواهر وآراء وأفكار ومثل عالية . وبعد أن كان روسو يعتقد أنه لا يصلح لشىء مطلقا أخذ يشعر بنفسه ، ويحترمها بعد أن كان يحتقرها ، ويثق بنفسه بعد أن كان قليل الثقة بها .

وقد حدث ذات مرة أن هذا الكاهن الكريم حاول أن يرفع روسو من الوهدة التى سقط فيها من حيث لا يشعر روسو بأن هذا الكاهن الحازم يريد أن يعطيه درسا بطريقة عملية ، وقد كان الناس يثقون بالكاهن ، ويعطونه الصدقات لتوزيعها على من يستحقها من الفقراء والمساكين . وذات يوم حضر أحد الأغنياء ، وأعطاه شيئا من المال لتوزيعه على المحتاجين ، فطلب روسو شيئا من هذه الصدقة ، لشدة فقره وحاجته ، فقال له الكاهن : «أيها الأخ إنك تنسب إلى ، وأنا مسئول عنك. ويجب ألا أمس نقودا وضعت أمانة فى يدى ». ثم منحه من ماله الخاص ما شاء من المال . فدرس عملى كهذا الدرس قد ترك أثرا قويا فى قلب روسو المسكين البائس الضال . وقد اعترف روسو بأن هذا الكاهن المحسن كان له كل الفضل فى إنقاذه من حياة التشرد والبطالة إلى حياة العمل والنظام ، وأنقذه من تلك الحياة الشقية

التعسة؛ حياة البؤس والشقاء، إلى حياة العمل والاستقامة . وقد كان لهذا الكاهن أثر كبير فى تثقيفه وتهذيبه ؛ فقد تعلم منه الإخلاص والصراحة ، وحب الإنسانية، وكراهة الرياء والنفاق، وعوده أن يقول ما يعتقد ، وأن تكون أفعاله متفقة مع أقواله ، وأن يساعد من يحتاج إلى المساعدة . وقد صرح روسو بأن حياة هذا الكاهن كانت المثل الأعلى له ؛ فلا عجب إذا أعجب به روسو ، وزاد إعجابه به يوما بعد يوم، وملك قلبه بشفقته النادرة ، وعوده حسن التبصر والتفكير ، والعطف على الفقير .

وقد كان روسو يكره الأغنياء ، ويحقد على الناجحين فى الحياة ، فكان شعوره ، مضادا لشعورهم ، كأن ثروة الأغنياء قد أخذت منه عنوة . وكأن نجاح الناجحين أو سعادتهم قد اغتصبت منه ؛ فكان سريع التأثر ، كثير الفخر والتكبر ، كثير الحقد على غيره ، فأخذ ذلك الكاهن يهذب قلبه ، ويهذب شعوره نحو غيره، بدون أن يمس شعوره، وعلمه أن يفكر فى جاره كما يفكر فى نفسه، ويعنى بالحقائق، ويترك المظاهر ، ويتألم لآلام الناس ، ويفرح لأفراحهم ، ولا يحقد عليهم ، وبث فى نفسه أن هدوء الضمير هو السعادة ، وأن الرجل الذى يتعلق بالحياة كل التعلق ، ويفكر فيها كل التفكير أقل الناس تمتعا بالحياة ، وأن الرجل الذى يجعل كل همه فى أن يكون سعيداً هو أشقى الناس دائما . فعد روسو هذه الآراء غريبة، وأخذ يسأل الكاهن : من يستطيع أن يكون سعيدا ؟

فأجابه بنغمة قوية تركت أثرا كبيراً فى نفسه قائلا : أنا سعيد مع فقرى ، وأنت سعيد مع فقرك و بعدك عن بلادك. و إذا فكرت كما أفكر عرفت كيف تكون سعيدا. وأخذ يشرح له قيمة الحياة .

وفى الصباح التالى استيقظ الكاهن والفتى مبكرين ، وذهبا إلى قمة الجبل المطلة على نهر « پُو » ، وأخذ الكاهن يتحدث معه عن العقيدة ويقول: « إنى أحب الحقيقة ، وأبحث عن الحقيقة ، ولا يمكننى أن أجد الحقيقة . أرنى الحقيقة كى أتمسك بها ». وأخذا يتناقشان مناقشة مستفيضة عن الفضيلة والسعادة ، والحقيقة والحياة . وقد كان لهذا النوع من الدراسة والنقاش وقراءة سير العظماء أثر كبير فى حياة روسو فى ذلك العهد ؛ عهد الشباب . وأخذ يدرس الدين ، ويقتبس كثيراً من كلام الآباء الروحيين ، ويدرس التاريخ والطبيعة ، وعلم النبات والحياة ، حتى يقنع نفسه ورغبته . وما كان أشد رغبته فى البحث والاطلاع ؛ للوصول إلى الحقيقة .

روسو والسيدة الايطالية

أنفق روسو كل ما كان معه من نقود ، وحاول أن يجد عملا بكل وسيلة من الوسائل . وبينما كان يبحث عن عمل إذ رأى وهو فى الطريق سيدة إيطالية جميلة تعمل فى حانوت ، فذهب إليها وشرح لها حاله ، وكانت تدعى (مدام بَاسِيل[1]) ، فتألمت له كل الألم ، وعطفت عليه كل العطف ، وكلفته العمل فى الحانوت من أجل ملبسه ومأكله ، وقد بذل روسو كل ما فى وسعه من جهد ، لترضى عنه تلك السيدة ، وقد أحبها حبا صامتا ، واستمر يعمل فى حانوتها حتى عاد زوجها من غيابه ، وكان شديد الغيرة ، فاعترض على وجود هذا الشاب الأجنبى فى بيته ، وطرده شر طردة ، وأخذ يهدده ، فرثت السيدة لحاله ، وأوجدت له عملا لدى (مدام دى فِرْسِيلِيز[2]) ، وهى أرملة غنية من الأسر المعروفة . قبل روسو شاكرا أن يكون خادما فى منزلها ،

---

(١) Madame Basile (٢) Madame de Vercellis

ولـكن لسوء حظه توفيت تلك السيدة بعد ذلك بثلاثة أشهر ، وحـدثت بعد وفاتها حادثة تحتاج إلى كثير من البحث والنقاش ، وقد ذكر تلك الحادثة فى اعترافاته ، وقص تلك القصة وكله خجل وحزن ؛ فقد وُجد بعد وفاة سيدته أن شريطا حريريا وردىّ اللون فقد ، وبالبحث عن هـذا الشريط المفقود وجد بين أدوات روسو ، فسئل: من أين أخذه ؟ فأجاب بأن الخادم (مَرْيُون[1]) ـ وهى فتاة ذات جمال تخدم فى المنزل ـ أعطته هذا الشريط، واتهم الخادم بالسرقة ظلما أمام الحاضرين من السيدات والسادة والخدم ، وتمسك بهذا الاتهام الكاذب، فأحضرت الخادم، وسئلت عما نسب إليها من السرقة ، وقابلت روسو وجهاً لوجه ، فأكد بكل جسارة وجرأة أنها هى التى سرقت الشريط ، فصمتت وسكتت ، ولم تُحِرْ جوابا ، وتنفست الصُّعَـداء ، ونظرت إليه نظرة مبكية كأنها تتساءل : هل أنا سرقت ؟ فـكرر اتهامه لها بالباطل ، وأنـكرت تلك التهمة ، وقالت والدموع تتساقط من عينيها : « كنت أظن يا روسو أنك طاهر القلب ، طيب السريرة ، ولـكنك جعلتنى شقية حزينة ، ولن أضع نفسى موضعك ، ولن أفعل ما فعلت» .

و بعد أربعين سنة من تلك الحادثة اعترف روسو بالسرقة، وكتب عن نفسه يقول: « لقد أزعجتنى هذه الحادثة المؤلمة ، وأقلقت مضجعى كثيرا ، فطالما أرقت ولازمنى السهاد فى كثير من الليالى، ورأيت تلك الفتاة البريئـة المسكينة ماثلة فى خيالى تلومنى على جريمتى؛ كأنها كانت بالأمس. و إن قلبى ينفطر كلما تذكرت مَرْيُون، ولـكن حضور كثير من الرجال منعنى ذكر الحقيقة ؛ فإننى لم أخش العقوبة ، ولـكننى خشيت العار والفضيحة أمام الحاضرين . لقد خفت العار والخجل أكثر من الموت ، وأكثر

---

(١) Marion

من الجريمة ، وأكثر من أى شىء آخر . لقد خشيت أن تعرف السرقة ، ويعلم الجميع بها علانية فى حضورى، فأدعى اللص الكاذب التمام. حقا إن حبى لتلك الفتاة المسكينة كان سببا فى اتهامها وهى بريئة ؛ فقد كانت فى ذاكرتى دائما ، وحينما سئلت عن السرقة رميت التهمة على أول شخص حضر فى ذاكرتى . وقد كاد قلبى يتمزق حينما أحضرت لتسأل عن التهمة ، ولم يوبخنى ضميرى فى هذه اللحظة خوفا من العار ، وكنت أتمنى أن أدفن نفسى فى أعماق الأرض ؛ فقد تملكنى الخجل ، وخفت الفضيحة » .

فروسو يعترف بالسرقة ، ولكنه يعترف متأخرا ، ويعترف بأن الخوف من الفضيحة والعار هو الذى أدى إلى اتهامه تلك الفتاة البريئة المسكينة، وقد أخذ ضميره يؤنبه على كذبه فى دعواه حتى نهاية حياته، وكان يخيل إليه فى تلك الليالى الطويلة التى يصيبه الأرق فيها أن تلك الفتاة البائسة حاضرة أمامه تعيّره ، وتعاتبه؛ لاتهامها بذنب لم ترتكبه ، ولم تقترفه . ويحسب روسو أن هذا التوبيخ للضمير قد كفر عن خطيئته فى اتهامه تلك الفقيرة المظلومة التى اتهمت ظلما وعدوانا . ومن هذا نرى صراحة روسو فى الحكم على نفسه ، وكيف يؤنبه ضميره على الخطيئة ، وكيف كانت حياته بعد شبابه .

وقد قيل فى رواية أخرى إن السرقة لم تكن شريطا من الأشرطة ؛ بل كانت قطعة ثمينة من الماس . وليس هناك مايثبت أنها قطعة من الماس ؛ فقد ذكر فى اعترافاته أنها شريط أعجب به فأخذه .

لقد ماتت السيدة ، وترك روسو منزلها بعد تلك الحادثة المشئومة ، وأصبح لا عمل له ولا مسكن ، فعاد ليسكن مع تلك السيدة العجوز فى مسكنها القذر مع

أطفالها الستة ، وقد كانت بذيئة اللسان ، ولكنها كانت رقيقة القلب . مكث لديها ستة أسابيع يقفى نهاره ضالا مشردا فى الطريق . وأخيرا وجد نفسه خادما للمائدة فى بيت رجل من الأسر العريقة فى المجد ، وهو (كُونْت جُونُون[1]) ، فعامله معاملة حسنة ، فيها كثير من العطف والشفقة ، وقد تكرم ابن الكونت ، وعلَّم روسو اللغة اللاتينية، وادعى روسو أنه أحب ابنة سيده ، فكان يخدمها بإخلاص ، وينتظر أى إشارة منها ، ويقف أمامها ليلحظ كل ما تفعله ، منتظرا أى أمر تأمر به ، مترقبا اللحظة التى تود فيها تغيير إنائها . وقد ظن أن له منزلة فى قلبها ، مع أنها لم تنظر إليه نظرة واحدة ، ولم تكلمه كلمة تدل على الحب . وذات مرة كان يحوم حول حجرتها فنهرته وزجرته وعنفته .

وقد وجد روسو فى هذا القصر فرصة ثمينة للتربية والثقافة والتهذيب ، ولكنه كان كثير التغير والتقلب ؛ فقد زاره صديق قديم[2] من جنيف ، فرغب فى صحبته ، وأخذ يلتمس سببا يستند إليه فى ترك خدمة سيده الذى أحسن إليه. ولا عجب ؛ فروسو الشاب لا يحب الاستقرار فى أى مكان ، ولا الثبات فى أى عمل من الأعمال . ونسى جميل سيده ، ومعروف أسرته ، وترك الفرصة التى أتيحت له فى تعلم اللاتينية ؛ تلك الفرصة الذهبية التى منحت له ليثقف نفسه ، ويتعلم ويعمل فى تلك البيئة المثقفة الإيطالية ؛ فسيده كان أديبا مثقفا ، والابن[3] كان متعلما مهذبا . وأظهر روسو مقدرة ونجاحا فى العلم ، وفى اللغتين الإيطالية واللاتينية ، ولكنه أهمل ما عليه من واجبات فى منزل سيده ، ولقد أحبته الأسرة لذكائه وآرائه ، ولكن الخدم حقدوا عليه ، وغاروا منه ، لحب الأسرة له ، وأبغضوه لإهماله ، وقلة تفكيره

---

(١) The Count of Gouvon (٢) اسمه (باكل) Bacle
(٣) Abbe de Gouvon

فيما عليه من واجب الخدم ، وأخـذوا يوبخونه من وقت لآخر ، ولـكن لم يجد فيه نصح ولا توبيخ، وترك بيت سيده غير آسف عليه، وفـكّر فى رحلة جميلة فى الجبال ، والغابات والحقول والأنهار ، وتذكر حياة الطفولة كلها ، وفـكر فى الحرية ولذتها ، والسفر مع صديق يماثله فى سـنه وذوقه ، وليس لديه واجب يقوم به . وليس لأحد الحق فى الضغط عليه . ولديه الحرية فى أن يذهب حيث شاء ، ويقيم حيث أراد . وتغلب عليه مرح الشباب ، وسيطرت عليه محبة الحرية ، ولعب به الخيال ، واعتقد أن من الجنون أن يضحى بهذه الرحلة وما فيها من مسرة ، فى سبيل مستقبل ضعيف بطىء مشكوك فيه .

لهذه التخيلات والأفـكار التى خطرت بنفسه سافر مع صـديقه ، وسارا نحو سويسرة موطنهما المحبوب ، مبتهجَين مرحَين ، بقلبين مطمئنين ، وقد فكرا فى الوسيلة التى بها يحصلان على معيشتهما فى أثناء سفرهما . ولم يكن لديهما ما يكفيهما فى هذه الرحـلة الطويلة من (بِيدمُونْت[1]) بإيطاليا إلى جنيف بسويسرة من طعام أو لباس أو مال .

من هذا نرى أن روسو كان كثير الأحلام والخيالات ، كثير التغير والتقلب ، لا يتريث فى حكم ، ولا يقر بجميـل ، يسير مع خياله وهواه ، يعيش فى عالم الخيال لا عالم الحقيقة ، ويرتكب أشياء تدل على الحمق وعدم التفـكير ، ومع هذا فقد كان فائق الذكاء ، عبقريا ، محبا للطبيعة ، حى الضمير ، قوى العاطفة ، واضح الحجة ، عذب الأسلوب . ولا غرابة ؛ فقد كان لـكتابته أثر كبير فى العالم الفرنسى والثورة الفرنسية بعد موته .

---

(١) Piedmont

روسو بمدينة آنسي مع مدام دى وَارِنز

وأخيرا وصل إلى مدينة آنسي[1] سنة ١٧٢٩م مفلسا، ممزق الثياب، سيئ الحال، وقد بلغ من العمر الآن ثمانى عشرة سنة . فألقى بنفسه مرة أخرى فى منزل تلك السيدة المحسنة التى آوته منــذ ثمانية عشر شهرا ، وهى (مدام دى وارِنز[2]) ، وقرع الباب وهو يرتعد ، وقلبه ينبض ، فاستقبلته السيدة استقبالا حسنا كله عطف، وانحنى عند رؤيتها ، وقبّـل يدها وهو فرح مسرور ، ثم مكث فى هـذا المنزل ، وعومل فيه كما يعامل الإنسان فى منزله .

وكانت هذه السيدة تبلغ من العمر ثمانيا وعشرين سنة ، قصيرة القامة ، ممتلئة الجسم ، جميلة الصورة ، حسنة الهندام ، زرقاء العينين ، جذابة فى ابتسامتها ، ولا نظير لها فى الجمال فى عين روسو . وكان زوجها[3] أكبر منها سنا ، فلم تعش معه ، واتخذت لها مسكنا فى قرية[4] على بحيرة لِيمان[5] . وقد حدث أن ملك سردينية[6] ذهب إلى هناك فغيرت مذهبها الدينى ، واعتنقت المذهب الكاثوليكى ، فسرّ الملك بها ، وأعجب بعملها ، وأمر لها بمعاش قدره ألفا فرنك . والحق أن (مدام دى وارِنز) كانت قليلة التمسك بالدين ، تعنى بالمظاهر الخلقيــة ، والناحية الشكلية ، وتتظاهر بالفضيلة ، ولا تعمل بمبادئها . ومع هذا كانت تعطف على الفقراء ، وتحب المساكين ، وتتصدق على المعوزين ، وتحسن إلى المحرومين . وقد عرفت بالوداعة ، وسهولة الطبع ، والمهارة فى العمل ، ولها كثير من الآراء الفلسفية . ومع شدة ذكائها كان من السهل

---

(١) Anncy (٢) Madame de Warens
(٣) البارون دى وارنز : Baron de Warens (٤) هى قرية : Evian
(٥) Leman (٦) Sardinia

التأثير فيها ، وقد ورثت عن أبيها حب الكيمياء ، فقضت كثيرا من وقتها فى دراستها، وأنفقت الكثير من مالها لتحليل بعض العقاقير والمواد الكيميائية .

استمر روسو ببيتها بمدينة آنسى[1] سعيدا بحياته ، يقرأ ويدرس ، ويخدم هذه السيدة ، ويعدها أمًّا له فى حديثه ، وتعده ابنا لها ، يحبها وتحبه . وكان يلجأ إلى هذا البيت كثير من السائلين والزائرين، فتكرمهم هذه السيدة كل الإكرام، فيتذمر روسو؛ لأنه كان يود لو يحتكر البيت لنفسه ، ويريد أن يجعل انتباه سيدته خاصا به وحده، فكان محبا لنفسه ، يشكو متى حضر إلى البيت زائر ، ويلعن الضيوف بعد ذهابهم ومغادرتهم ، حتى تغرق السيدة فى الضحك ، وتنسكب الدموع على خديها .

كان روسو يقرأ معها كتب ڤولتير[2] ، وغيرها من الكتب ، ويستمع إلى حديثها إذا تكلمت ، ويصغى إليها إذا غنت ، ويعجب بها إذا لعبت على الكمان . فلا غرابة إذا قلنا إنه كان فى هذه المدة سعيدا كل السعادة ، منعما كل التنعم ، ولكن هذه الحياة اللذيذة الساحرة لم تطل ؛ فهو الآن شاب ، ويجب أن يعتمد على نفسه ، فى كسب عيشه بعرق جبينه .

وذات يوم حضر قريب من أقارب تلك السيدة لزيارتها فرأى روسو ، وسئل عن رأيه فيه ، فأجاب فى النهاية : إن الشاب محدود الذكاء ، جاهل جدا ، لا يصلح إلا لأن يكون كاهنا فى إحدى القرى . ومع ذلك فهذا المركز المتواضع يحتاج صاحبه إلى دراية تامة باللغة اللاتينية أكثر مما كان يعرفه روسو .

---

(١) حتى سنة ١٧٣١ م .

(٢) Voltaire (١٦٩٤ — ١٧٧٨ م) : كاتب فرنسى قدير ، وشاعر كبير ، قوى الأسلوب، ويعد من قادة الفكر .

فأرسلته (مدام دى وارِنْز) إلى إحـدى المدارس[١] ليتعلم اللغة اللاتينية حتى يجيدها ، فشعر الشاب بأنه طرد من الجنة ، واستعرقلق البال ، ولم يظهر نجاحا باهرا ، بل سار سيرا بطيئا ، ولم يعجب به الأساتذة فى هـذه المدرسة . و بعد أن بذلوا معه كل مجهود ممكن قرروا أنه لا يصلح لشىء ، ولا يمكنه أن يكون كاهنا .

فعاد روسو من حيث أتى ، عاد إلى بيت (مدام دى وارِنْز) ، و برهن على أنه يجيد الصَّفير ولعب النّاى أكثرمن إجادته اللغة اللاتينية. وقضى معظم الشتاء مع أستاذ[٢] موسيقىّ للكنيسة ، يجيد الموسيقا ، و يعيش غير بعيد من البيت الذى يسكنه روسو. ولـكن هذا الأستاذ كان كثير النزاع والشجار مع غيره ، محبا لشرب الخمر ، فعزم على أن يغادر القرية سرًّا ، واتفق مع تلميذه روسو على أن يصاحبه فى سفره إلى مدينة (لِيُون)[٣] . سافرا معا حتى وصلا إلى ليون ، وكان مظهرهما مغريا ، فوجدا كرما من الأهلين فى أثناء رحلتهما . و بينما كانا يسيران فى (ليون) إذ أصابت الأستاذ نو بة شديدة ، فوقع على الأرض ، وقد أغمى عليـه ، فاستغاث روسو بمن حوله ، واستنجد بهم فى طلب المعونة ، وأعطاهم اسم النُّزُل الذى ينزل به أستاذه . و بينما كان الجمع المحتشد مشغولا بإسعاف هذا الرجل المسكين ، و إنقاذ حياته ، إذ اختفى روسو وهرب ، وجرى من حيث لا يراه ولا يشعر به أحد ، وترك أستاذه وصديقه للقضاء والقدر ، ولم يشعر بأنه قصر فى حق صديقه عندما تركه وفرّ ، لم يشعر بأنه أهمله وحده غريبا ملقى على الأرض ، ولم يراع واجب الصحبة والصداقة ، وقد ظن حينما هرب أنه لا يستطيع أن يفعل له أكثر مما فعـل . وماذا فعل ؟ إنه استغاث بمن حوله ،

---

(١) هى مدرسة سانت لازار : St Lazare (٢) كان هو الأستاذ M. Le Maitre
(٣) Lyons

فحضر المستمعون ، واحتشدوا ليروا ماذا حدث . ولكن بعد سنوات تذكر الحادثة، وتذكر فراره من صديقه وأستاذه ، وتركه وحده فى بلد الغربة ، ووبخه ضميره على ما ارتكب من إهمال لواجب الصداقة وقت الشدة . وفى ذلك يقول : « إن ضمائرنا لا توبخنا حينما نرتكب الخطأ . ولكنها توبخنا حينما ينقضى الوقت ، ونتذكر ما ارتكبناه ، ولا نستطيع أن ننساه » .

وبعد أن وجد الحياة قاسية فى ليون تمنى لو يعود إلى مدينة آنسِى [1] حيث كانت (مدام دى وَارِنْز) تقيم ، ثم عاد ، ولكن لسوء حظه لم يجدها هناك ، وعلم أنها سافرت ، وتركت تلك البلدة ، ولم يعرف أحد أين تقيم ، أو متى تعود من سفرها . ولما كان معسرا شديد الحاجة ، اضطر أن يسكن مع شاب فرنسى كان قد حضر إلى (آنسِى) منذ سنة فقيرا معدما ، ولكن لأخلاقه وآدابه ، وحسن محضره وحديثه ، مع مهارته الموسيقية ملك قلوب السكان ، وكانت له منزلة كبيرة فى نفوسهم فأكرموا وفادته ، وعاش فى رغد من العيش .

مضى وقت ليس بالقصير ، ولم تحضر السيدة ، ولم يسمع عنها شىء . وحضرت خادم من خدمها لتبحث عن سيدتها ، فلم تجدها . فرجت روسو أن يصحبها و يرافقها إلى بيت أبيها فى قرية (فرِيبرْج [2])؛ لأنها مضطرة إلى السفر راجلة. فوافقها روسو، وسافر الاثنان معا على الأقدام. وفى أثناء سيرهما مرَّا بقرية (نِيُون [3]) حيث يعيش أبو روسو، وجد روسو الفرصة سانحة لزيارة أبيه، فزاره بعد طول الفراق، وتعانقا عناقا حارًّا، وبكيا بكاء مرًّا حينما أخذ الابن يخرج ويفارق أباه بعد اللقاء . وقد دعته زوج أبيه أن يمكث حتى يستريح ، ولكنها دعته بلسانها ، ولم تدعه بقلبها، ولم تلح عليه فى طلبها،

---

(١) Anncy (٢) Friburg (٣) Nyon

obeikandl.com

ثم استأنف هو ورفيقته السير حتى وصلا إلى قرية (فِرِيبِرْج) موطن الخادم ، فذهبا إلى بيت أسرتها ، فلم يستقبله أبوها استقبالا يشجعه على البقاء ، بل استقبله استقبالا باردا كله فتور ، فخرج هائما فى طريقه ، وهو خاوى الوفاض ، لايدرى أين يذهب ، وليس معه شىء يستعين به على المعيشة أو السكنى . استمر فى رحلته حتى وصل إلى مدينة لوزان[1] ، فبدأ الأمل يتسرب إلى نفسه ، وحسب أن فى استطاعته أن يحاكى أستاذه فى الموسيقا ، أستاذه الذى تركه فى ليون وهرب منه وهو مغمى عليه . وادعى أنه قادر على تعليم الموسيقا ، وأنه تعلمها فى باريس ، وأنه آت من باريس ، وهذا كله ادعاء باطل ، بعيد عن الحقيقة ؛ فهو لايستطيع أن يعلم الموسيقا ، ولم يتعلمها فى باريس ؛ لأنه لم ير باريس بعد ، وكل ما هنالك أنه يميل إليها ، يميل إلى استماعها ، ولكنه لا يجيدها ، لأنه لم يدرسها دراسة منظمة ، بل أخذ دروسا متقطعة ، ولم يتفرغ لتعلمها .

و بكل جسارة وجرأة دخل نُزُلًا فى لوزان ، وليس فى جيبه فلس واحد ، فلم يشتبه فيه أحد ، واستقبل استقبالا عاديا ، وأخبر صاحب النزُل خبره ، فصدقه ولم يشك فى قوله ، وسمح له بالإقامة لطيبة قلبه ، وحسن سريرته ، ونصح له أن يكتفى بأكلة واحدة فى اليوم ، ويدفع ثمن الطعام حينما ييسر الله له الحال . وقد سأل روسو فى اعترافاته كثيرا من الأسئلة ؛ فقد وجد كثيرا من الطيبة فى الناس فى شبابه ، وقليلا منها فى كهولته وشيخوخته ، ولم يدر لذلك سببا ، وطفق يسأل : أتغير الإنسان ، أم تغيرت طبيعة الشعوب ؟ والحق أن الإنسان لم يتغير ، وطبيعة الشعوب لم تتغير ، ولكن البيئة التى كان يعيش فيها هى التى تغيرت ، فالبيئة التى

---

(١) Lausanne

كان يتصل بها فى طفولته تختلف كل الاختلاف عن البيئة التى كان يتصل بها فى شيخوخته؛ فقد كان فى طفولته فقيرا يعيش فى بيئة الفقراء ، وفى شيخوخته كان فقيرا متصلا بالعظماء والأشراف ، يخطبون وده ، ويتمنون الاتصال به ، مع أنه كان ينتقدهم انتقادا مرا ، ينتقدهم فى حياتهم ومظاهرهم ، فى ترفهم وصلفهم ، ينتقدهم فى استعبادهم للفقراء ، وقسوتهم فى معاملتهم . كتب كثيراً ضد الأغنياء ، فى وقت كانوا يعطفون عليه كل العطف ، ويقدمون له ما يحتاج إليه من معونة . وكثيرا ما كان يرفض الإحسان إليه من المعجبين به من الأشراف. ولاعجب؛ فقد كان روسو ابن الطبيعة، وعدو المدنية والمظاهر الكاذبة ، والمنادى بالحرية والعدالة الاجتماعية ، والمساواة بين الأغنياء والفقراء ، والإخاء بين الناس .

روسو يعلِّم الموسيقا :

بدأ روسو يعلِّم الموسيقا وهو جاهل بها كل الجهل ، وأعلن عن نفسه أنه مؤلف موسيقىّ فى حين أنه لا يستطيع أن يعرف نغمة موسيقية ، كل هذا فى سبيل العيش والحياة . ولانتكر أنه كان مولعا بفطرته بالموسيقا ، ولكن لم تتح له الفرصة الكافية لتعلمها وإجادتها من قبل . وقد نتن وشغف حبا بصديق فرنسى يجيد الموسيقا[1] كان له أثر كبير فى نفسه ، وتعرف بموسيقى آخر يدير محلا للغناء والطرب ، وتقدم[2] إليه مستعدا لتأليف قطعة موسيقية لحفلة من الحفلات ، فوافقه المدير ، وأعد روسو القطعة فى ستة عشر يوما ، واعتقد أنها تصلح لأن تكون نموذجا لا لسكان الأرض، بل لسكان القمر ، ولكن خاب ظنه عندما سمعها المستمعون ؛ فقد ماتوا من الضحك

(١) هو ڤنتور دى ڤيلنوف Venture de Villeneuve

(٢) وسمى نفسه ڤوسور دى ڤيلنوف : Vaussore de Villeneuve

حينما سمعوها ، وفتحوا أعينهم مستغربين ، وتمنوا لو يستطيعون أن يسدوا آذانهم من هذه الضوضاء التى يسمعونها . وطفق روسو أمام الجمهور ، والعرق يتصبب من جبينه ، ولم يجرؤ على الهرب . وقد سمع من حوله من المساعدين يتهامسون . فقال أحدهم : إن هذا لا يطاق . وقال آخر : ما هذه الموسيقا ؟ وقال ثالث : إن هذه ليست بموسيقا ، ولكنها أصوات مزعجة . وسمع فى الملهى كثير من الضحك فى كل ناحية من النواحى ، وأخذ المستمعون يهنئونه ساخرين بهذا الذوق الجميل ، مؤكدين له أنه موسيقى عالمى . كل هذا فى هزء وسخرية .

ولكن روسو يستحق كل هذه الإهانة ؛ فقد أقدم على عمل لا يجيده ، وادعى ما ليس فيه ، وعرف كل إنسان فى لوزان من هذا الموسيقى المدّعى . ولكنه يريد أن يعيش من عرق جبينه ، فماذا يفعل ؟ لقد وجد فى النهاية قليلا من التلاميذ يعلمهم الموسيقا ، تلاميذ يعرفون أكثر منه . ولكن بمثابرته أظهر تقدما فى الموسيقا ، واستطاع أن يعيش ، ويدفع أجرة النزل وثمن الطعام .

سفره فى رحلة إلى باريس :

وفى فصل الربيع سنة ١٧٣١م دخل نزلا فى بلدة بُودْرِى[1] ، فوجد قسيسا وقورا طويل الذقن ، يتفاهم مع صاحب النزل بالإشارة ، ويتحدث بلغة لم يستطع أحد أن يفهمها إلا روسو ، وقد أرسل من بيت المقدس ليجمع تبرعات لمشروع دينى ؛ هو تجديد الضريح المقدس ، وقد دافع عن هذا المشروع كثيرون ، وجمع من أجله كثيرون فى أوقات مختلفة فى سويسرة . ولعجز هذا القسيس عن التخاطب والتفاهم مع غيره طلب من روسو أن يكون مترجما له وكاتم سر ، فقبل روسو لشدة حاجته ،

(١) Boudry

وأخذ هذا الأب[١] وروسو ينتقلان من بلد إلى بلد ، ومن جهة إلى أخرى عدة أسابيع، حتى وصلا إلى بلدة (سُولُور[٢]) ، وكان ذلك من حسن حظ روسو ؛ فقد نزل الأب بمنزل السفير الفرنسى ، فرأى معه روسو ، فأعجب به الإعجاب كله ، وأخذ يسأله كثيرا من الأسئلة ، وعرف قصته كلها ، فعطف عليه ، ووضعه تحت عنايته ، وحاطه برعايته ، ثم أرسله السفير بعد أيام إلى باريس ؛ ليرافق ضابطا صغيرا فى سفره إليها ، فترك الريف الجميل بما فيه من غابات واسعة ، وأنهار متدفقة ، وطيور مغردة ، وسماء صافية ، وشمس ساطعة . ترك هذه الحياة الطبيعية الجميلة التى كان يعشقها قلبه، وتميل إليها حواسه ، تركها وهو مملوء أسفا ، وذهب إلى باريس كارها متألما ؛ لما كان فيها فى ذلك العصر المظلم من شوارع ضيقة ، ومنازل قذرة ، وما فيها من فقر بين أهلها، وصخب وصياح فى طرقها . وصل روسو إلى باريس ، فأخذ يسأل نفسه : أهذه هى باريس التى كنت أحلم فى شبابى بجمالها ، وكنت أظن أن قصورها أجمل القصور ، وأن شوارعها مرصوفة بالمرمر ، وكنت أحلم ليلا ونهارا بجلالها وجمالها ، وكنت أتمنى اليوم الذى أتمتع فيه برؤيتها وزيارتها ؟

استقبل روسو والضابط الصغير الذى يرافقه استقبالا مؤثرا من الأسرة التى أرسل إليها ، وقد وجد روسو فى تلك الأسرة آدابا تختلف عن آداب الريف ، وأخلاقا رقيقة ملائمة للمجتمع ، تختلف عما اعتاده فى الريف ، وبيئة تخالف البيئة القروية ، وأنسته هذه التحيات الرقيقة ، وهذه الآداب العالية ما رآه من قذارة فى شوارع باريس، وعوضت عليه مافقده من جمال فى الطبيعة . وحسب روسو أن حظه قد تغير،

---

(١) هو الأب أثانسياس بولوس : Father Athanasius Paulus (٢) Soleure

وأن له تأثيرا فى قلب كل سيدة تراه ؛ لجماله وقوة جاذبيته وشخصيته ، على الرغم مما جبل عليه من حياء وخجل ، واضطراب عند الكلام فى المجتمعات . وسرعان ماعرف أن الفرنسيين فى هذا العصر لا يقصدون مايقولون ، ولا يقولون ما يعتقدون، ولا يعتقدون ما يقولون ، وحينما يتكلمون معك يوجهون إليك كل اهتمامهم ، ويفكرون فيك كل التفكير ، فإذا ما ابتعدت عنهم نسوك كل النسيان ؛ فالبعيد عن أعينهم بعيد عن قلوبهم .

سئم روسو باريس ، وسئم مظاهرها ، وقد سمع أن (مدام دى وَارِنْز) عادت إلى بيتها فى آنسِى ، فودع باريس ؛ ليعود إلى تلك البلدة التى يحبها . عاد مبتهجا ، وسافر فَرِحًا مسرورا . عاد إلى الريف ، وكله مرح ونشاط؛ لأنه يحب هواء الريف، وجمال الريف ، والحرية الريفية . وطفق يغنى وهو سائر على قدميه ، يتنقل من قرية إلى أخرى، يتخيل ما يتخيله من الخيالات العذبة ، ويتخيل ما يتخيله من أحلام اليقظة ، وهو سائر بين الغابات والحقول ، يصغى إلى الطيور وهى تغرد على غصون الأشجار ، ويقدر الطبيعة وما فيها من جمال .

حالة الفقراء فى عصره :

وقد حدثت له حادثة فى أثناء رحلته أحيت فيه قوة الكتابة للدفاع عن الفقراء البائسين فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ؛ فقد ضل الطريق وهو مسافر ، وبلغ به الجوع والتعب كل مبلغ ، فدخل كوخا من أكواخ الفلاحين ، ورجا صاحبه شيئا من الطعام ، فقدم له الفلاح لبنا خاثرا ، وقطعة جافة من خبز الشعير ، فشرب روسو اللبن الرائب، والتهم الخبز الجاف شاكرا، ولم يبق على شىء من الطعام، ولكن أبى كفى

هذا النوع من الطعام شابا مرهقا جائعا فى هذا السفر الطويل ؟ نظر إليه الفلاح نظرة فاحصة أدرك منها حقيقة أمره، وشعر أنه مازال جائعا، واعتقد أنه أمين لا ينتظر أن يخونه أو يبلّغ عنه، فنهض الفلاح فى الحال، وغاب قليلا، ثم رجع ومعه قطعة من الخبز اللذيذ، وأخرى من لحم الخنزير، وثالثة من العجة ، وزجاجة من الخمر الذى يحبه روسو ، فأكل روسو ما لذ وطاب ، وشرب حتى شبع ، ثم أراد أن يدفع الثمن ، فرفض صاحب الكوخ ، وبدت عليه علامات الخوف والاضطراب ، ولم يدر روسو لذلك سببا ، ثم عرف منه أنه أخفى الخمر والخبز خوفا من الضرائب الثقيلة ، وخوفا من محصل الضرائب ، ولهذا يتظاهر بالفقر . لم يعرف روسو شيئا من هذا فى سويسرة ، وقد تأثر لهذا المنظر ، تأثر تأثرا شديدا ؛ فهو يكره الظلم بطبيعته ، ويكره من يظلم الفقراء أو يقسو عليهم ؛ فهذا الفلاح الذى اكتسب خبزه بعرق جبينه لم يستطع أن يظهر بحقيقته ، وعاش معيشة كلها خوف من الظلم ، خوف من الضرائب ، والقسوة فى المعاملة ، ومصادرة الأملاك .

خرج روسو من هذا الكوخ حزينا لما يلقاه الفقراء فى فرنسا من الظلم ، وما يشعرون به من الجوع والعرى . خرج حزينا لما يلقاه سكان الريف من المظالم ؛ فقد منحتهم الطبيعة جمالا دونه كل جمال ، ولكن جعلهم محصّلو الضرائب فريسة يفترسونها ، ويغتصبون منهم كل ما لديهم .

وقد كانت هذه الحال عادية جدا فى القرن الثامن عشر فى كل جهة من فرنسا. وخوفا من الضرائب كان الفلاحون يرفضون من سادتهم الذين يعملون فى أرضهم أن يأخذوا شيئا من القش أو الأعشاب ليعرشوا به أكواخهم ، معرضين أنفسهم لبرد الشتاء ، ومطر الشتاء . مواشيهم نحيفة عجفاء ، وحقولهم تترك بدون حرث ، ولا تسمد كما ينبغى . وكثيرا ما كان الفلاحون يتركون أرضهم من غير أن يزرعوا الكرم فيها؛

خوفا من أن يأخذ محصلو الضرائب كل مايجنون من أرباح. وكثيرا ما كان الفلاحون يرمون فى النهر ما لديهم من خمور ؛ لعجزهم عن دفع المفروض عليها من الضرائب . وإذا لبس أحدهم معطفا ليغطى به الخرق البالية التى يلبسها كان هذا كافيا لإرهاقه بضرائب لا قبل له بها. وكان هناك كثير من الجواسيس يراقبون الناس، ويتجسسون عليهم ، ويكتبون عنهم ما يشاءون من التقارير ، فإذا وُجد أمام الكوخ ريشتان أوثلاث من ريش الدجاج كان هذا داعيا للاشتباه فى غنى الساكن وثروته ، وسببا فى زيادة ما يدفعه من الضرائب .

لهذا الظلم الاجتماعى ، وهذه القسوة البالغة ، لم يجد الفقراء وسيلة يحفظون بها أنفسهم من هذا الظلم ، سوى التظاهر بأنهم معدمون ، لا يملكون شروى نقير .

طفق روسو سائرا فى طريقه ، وكان فى الليالى الباردة ينام أحيانا فى كوخ ، وآونة فى العراء ، ومرة فى نُزل الفقراء ، وليس معه من المال مايستعين به على الغذاء. وإذا سافر بين أحضان الطبيعة الجميلة ، وصفاء الشمس وجمالها ـ نسى ما يشعر به من تعب وشقاء ،ونَصَب وعَناء، وأخذ يفكر فى أشياء يستحيل عليه تنفيذها ، فإذا ما أقبل الليل نام على الأرض هادئا ؛ كأنه نائم على فراش وثير من الورد والحرير.

روسو فى مدينة ليون :

وذات ليلة كانت الريح معدومة ، وكان السكون مخيما ، وقد غربت الشمس، وتركت أشعتها الذهبية فى السماء ، وعلى الأشجار كثير من البلابل ، تغرد وتغنى بأصواتها العذبة الجميلة ، فانتعش قلب روسو ، وأخذ يتأوه أسفا ، أيتمتع بكل هذا الجمال وحده ؟ وطفق يسير حتى قرب من مدينة لِيُون ، وأطال السير فى تلك الليلة ،

ونسى أنه متعب . ولما شعر بالتعب أخيرا جلس وجمع بعض الحشائش ، ونام فوقها ، ولاغطاء له سوى الأشجار ، فأخذ يستمع إلى البلابل تغنى فوق رأسه ؛ حتى استغرق فى النوم ، ونام نوما هادئا عميقا .

وعندما بزغ الصباح فتح عينيه ، ورأى الطبيعة وجمالها ، والشمس و إشراقها ، والنهر وخريره ، والحشائش وخضرتها ، والطبيعة وعظمتها . استيقظ جائعا ، واشتد به الجوع ، وسار فرحا يغنى بروح مرح لا يفكر فى هم ولا غم ، متجها نحو مدينة ليُونَ ، وليس معه سوى قطعتين من النقود ، عزم على أن يفطر بهما إفطارا شهيا .

و بينما كان سائرا فى الطريق بمدينة ليُون إذ قابله رجل[1] فسأله : هل يستطيع أن ينسخ قطعا موسيقيـة ؟ فأجابه روسو : نعم ؛ إن فى قدرته أن ينسخ له ما يشاء من الموسيقا ، فأخذه وذهب به إلى بيته ، وأعطاه قطعا موسيقية لينقلها ، وقدم إليه ما يحتاج إليه من طعام وسكنى . وظل ينسخ أياما نسخا رديئا مملوءا بالخطأ والمحو والترميج، حتى تسلم رسالة من (مدام دى وَارِنْز) تطلب منه لقاءها ببلدة (شامْبَرِى[2])، فودع مضيفه ، وغادر مدينة ليُون ؛ ليذهب إلى تلك السيدة التى طالما أحسنت إليه ، وطالما أحبته وأحبها .

وصل إلى بلدة (شامْبَرِى) فى فصل الربيع سنة ١٧٣٢م ، فاستقبلته تلك السيدة استقبالا كله شوق وعطف ، ولـكنه لم يجد فى تلك البلدة ما كان يجده من جمال فى مدينة آنْسِى ، فليس فى شامبَرِى نهر ولا حديقة ولا غابات ، ووجد المنزل الذى تسكنه مظلما ضعيف النور ، فاســـد الهواء ، حجره قاتمة اللون ، فى شارع ضيق ،

---

(١) وكان هذا الرجل يدعى م . روليشون : M. Rolichon

(٢) Chambéry

فوجد روسو المنظر غريبا ، ووجد بالمنزل بستانيا[1] عالما بالأعشاب ، لديه خبرة بالعقاقير ، يبلغ من العمر ثلاثين سنة تستخدمه (مدام دى وَارِنْز) فى استخراج العقاقير من الأعشاب ، وفى خدمتها الخاصة ، وتحبه ويحبها .

روسو بمصلحة المساحة :

وفى ذلك الحين اشتغل روسو كاتبا بمصلحة المساحة ، فقد بدأت الحكومة تمسح الأرض من جديد ، فوجد روسو عملا له يستعين به على معيشته ، وبعد أن كان يقضى كثيرا من الوقت فى قراءة الكتب التى يستعيرها أخذ يقضى وقته فى استماع الموسيقا ، واشترك فى إحياء بعض الليالى ، وانقطع عن القراءة والكتابة ، وبدأ يشعر بأن عمله يجب أن يكون موسيقيا ، وترك وظيفته فى المساحة حيث كان يعمل خمس ساعات فى حجرة قذرة ، هواؤها فاسد مع كتبة غير مهذبين ، وسئم هذا العمل ، وحن إلى الحرية والعمل الحر ، ورجع إلى وظيفته القديمة ، وهى تعليم الموسيقا ، فوجد قليلا من التلاميذ يعلمهم . وكان فى الواقع يعتمد فى معيشته على أمه أو صديقته (مدام دى وَارِنْز) ؛ فقد كانت تعده أكثر من صديق ، وتحبه حبًّا جما ، وكانت معروفة بالكرم ، تكرم كل من يزورها . وما أكثر الزائرين لها من التجار والعلماء وغيرهم ، حتى أصبحت فقيرة تحتاج إلى من يعينها ، وقد مناها كثير من الزوار بإعانتها عبثا وكذبا . ولسوء الحظ توفى خادمها الأمين كلود آنى الذى كان يقوم بإعداد العقاقير ، ويدير شئون المنزل ، ويعطيها قلبه ، ويخدمها بإخلاص ، فحزنت عليه حزناً شديداً ، وزادت متاعبها المالية ، ولم تجد من يعينها من أصدقائها . وقد عجز روسو مع شدة

---

(١) هو كلود آنى : Claude Anet

حبه ووفائه لها عن مكافأتها ماليا؛ فهو فقير لا يستطيع أن يعول نفسه ، ولكنه استطاع أن يعزيها ويسليها ، ويدخل السرور إلى قلبها .

بدأ روسو يشعر بأن من الواجب عليه أن يعمل شيئا ليعول نفسه ، وينقذ سيدته من الخراب ، وفكر فى إنقاذها من الناحية المالية ، ولكنه لم يستطع أن ينقذها بطريقة عملية ، ولم يتمكن من تحقيق رغبته لضيق يده ، وأخذ يقضى وقته فى التمرن على الموسيقا وقراءة القصص ، والروايات ، والكتب الدينية والأدبية ، والمشى فى الخلاء بين أحضان الطبيعة . عاش معها أربع سنوات هادئا سعيدا لا يجد عملا يعمله سوى القراءة ونسخ الموسيقا ، والرياضة فى الهواء الطلق . استطاع أن يشاركها فى شعوره ، وفى حبه وقلبه ، ولكنه لم يستطع أن يمد لها يد المعونة .

حياته فى شارمتز :

وفى سنة ١٧٣٦م. مرض روسو مرضا خطرا ، وطالت مدة المرض حتى اشتد به الضعف ، وكثرت أسقامه وآلامه . وقد كان بفطرته نحيفا هزيلا ، ضعيف الجسم . وبعد مدة ليست بالقصيرة شفى من مرضه ، واحتاج إلى رحلة ريفية ، حيث الهواء الطلق ، وجمال الطبيعة . وكانت (مدام دى وارنز) تقيم فى بلدة شارمتز[1] فى منزل جميل الموقع لا يبعد كثيرا عن بلدة شامبرى[2] تحيط به الأشجار ، وأمامه حديقة جميلة ، بها كثير من الفواكه والكروم ، وفى الخلف غابة صغيرة ، وبالقرب منه نهير صغير يجرى بين جبلين . رحل جان جاك إلى شارمتز ليستجم هناك ، ويستعيد صحته وقوته ، فابتهج لهذه المناظر الطبيعية الجميلة ، واستقبلته (مدام دى وارنز) بكل

---

(١) Charmettes (٢) Chambery

ترحاب، وعانقها وهو يقول: «هذا بيت السعادة والطهارة. وإذا لم نجد السعادة والطهارة هنا فمن العبث أن نبحث عنهما فى أى مكان آخر » .

مكث روسو فى تلك البلدة الجميلة مع أمه المحبوبة مدة الصيف فى ذلك المصيف الجميل ، وصاحبها فى الشتاء إلى المشتى فى (شَامْبَرى) حيث الجو الدافئ ، والهدوء التام .

وقد أحب روسو بلدة (شَارْمِتْز) كثيرا ، وأخذ يعود إليها من وقت لآخر ، ويقبل أرضها وأشجارها قائلا : « هنا ابتدأت السعادة القصيرة لحياتى ، وهنا قضيت لحظات سعيدة هادئة جعلت لى الحق فى أن أقول إنى من الأحياء ، فإذا استيقظت مع الشمس شعرت بالسعادة ، وإذا سرت أحسست بالسعادة ، وإذا رأيت أنى كنت سعيدا ، وإذا تركتها كنت سعيدا . كنت أجول حول الغابات والحقول والجبال. وأسير بين الأحراج، وأقرأ وأستريح ، وأشتغل فى الحديقة، وأجمع الفاكهة، وأساعد فى إدارة المنزل ، والسعادة تلازمنى فى كل مكان » .

خطته اليومية ودراسته :

وقد وصف روسو خطته اليومية بالتفصيل ، فقال : إنه كان يستيقظ كل يوم قبل طلوع الشمس ، ويسير بين الكروم متجها نحو بلدة شَامْبَرِى ، يصغى إلى الطيور مغردة فى الصباح المبكر ، فإذا ما وجد نفسه فى الخلاء ، لا يحجبه حجاب ، توجه إلى الله لا بلسانه وشفتيه ، بل توجه إلى الله بكل قلبه . توجه إلى خالق الطبيعة الجميلة التى تحيط به، والتى يراها بعينيه فى كل مكان، وتوسل إليه بكل مشاعره وحواسه . وما كان روسو يحب أن يدعو الله فى حجرة ؛ لأن الحجرة من عمل الإنسان؛

فهى ـ فى ظنه ـ قد تجعل بينه و بين الله حجابا ، وهو يريد أن يتصل بالله حيث لا باب ولا حجاب . و بعد أن ينتهى من تضرعه ودعائه يعود إلى البيت ، فإذا وجد نوافذ الحجرة الخاصة بأمه مفتوحة أسرع فى مشيته ، وذهب إلى البيت ، وتناول طعام الإفطار مع (مدام دى وَارِنْز) أمه المحبو بة ، وتحدث معها حديث الصباح ، ثم عكف على القراءة والدراسة حتى الظهر ، فكان يقرأ كتب جون[1] لوك ، وكتب ديكارت[2] ، وكتب ليبْنِتْز[3] ، وكتب بَفِنْدُورْف[4] ، والرسائل الفلسفية لفولتير[5] . وفى الساعة الثانية عشرة يشتغل فى الحديقة ، أو يعنى بما كان يربيه من الحمام[6] أو النحل حتى يحضر الغداء ، فيتناول طعامه ثم يستريح قليلا ، أو يقرأ أى كتاب للتسلية ، أو يتحدث مع أمه ، أو مع أصدقائه بعد تناول القهوة . فكان وقته فى هذه الفترة منظما ، وحياته سعيدة فى بلدة (شَارْمِتْز). وهنا كون نفسه فى دراسة العلوم والآداب ، والفلسفة والسياسة ، والاجتماع والاقتصاد والأخلاق ، والتربية ؛ فكان روسو يقضى وقته بين الدراسة التى يميل إليها ، والكتب التى يعشقها ، والطبيعة التى يغرم بها ، فكان يحب الطبيعة وجمالها ، والشمس وصفاءها ، والأنهار وعذوبتها ، والمياه وخريرها ، والأشجار وظلالها ، والجبال وارتفاعها ، والطيور وتغريدها ، والحقول وخضرتها ، والأزهار ونضرتها ، يميل إلى الجلوس فى الشمس بغير عمل ، أو يقرأ تحت ظلال الأشجار ، أو ينظر إلى الطبيعة الساحرة يصغى إلى خرير المياه . وتغريد الطيور ،

---

(١) John Locke : (١٦٣٢ — ١٧٠٤ م . فيلسوف إنجليزى .

(٢) Descartes (١٥٩٦ — ١٦٥٠م : فيلسوف فرنسى .

(٣) Leibnitz (٤) Puffendorf

(٥) Voltaire's' Lettres Philosophiques'

(٦) كان الحمام يقف على رأسه وعلى كتفيه مطمئناً ، وكان النحل يألفه ويمشى على يديه ووجهه من غير أن يمسه بسوء .

وهديل الحمام ، يحب الوحدة والعزلة فيقرأ أو يكتب فى الحقول ، حيث لا يراه ولا يشعر به أحد . يحب حياة السهولة والهدوء .

وقد كانت دراسة (جان جاك) هنا دراسة منظمة ، ناجحة موفقة ، قرأ كل ما استطاع أن يقرأه للمؤلفين القدماء والمحدثين من الكتاب والشعراء ، والأدباء والعلماء والفلاسفة . قرأ كل ما وصلت إليه يده ، واقتنى ما سمحت به موارده المحدودة من الكتب ، واستعار منها كل ما استطاع أن يستعيره. وكما درس الآداب والفلسفة درس الدين وأساليب الكلام ، مع أنه كان لا يحسن التكلم مع العظماء ، فكان إصغاؤه أكثر من كلامه ، فدراسته فى بلدتى (شَامْبَرى وشَارْمِتْز) كانت دراسة مثمرة منتجة ، كان لها كل الأثر فى كتابته حينما بدأ يكتب رسائله وكتبه .

وقد أتعب عقله ونفسه بالتفكير فى الشئون العامة التى تتعلق بالمجتمع ، وتتصل بالفقراء وما كانوا يقاسونه ، من ظلم الأشراف والأغنياء ، وتعسفهم وتعنتهم. فكر فى الإخاء والحرية والمساواة بين الأفراد ، وطالب بهذه الحقوق ، ونادى بها . وقد لقى فى سبيل مبادئه النفى والسجن والتشريد، وقد نادى بالعدالة الاجتماعية فى وقت انتشر فيه الظلم والاستعباد ، والعسف والاضطهاد ، وقل من كانت لديه الشجاعة والصراحة فى معارضة الحاكمين من الأشراف .

وفى سنة ١٧٣٧ أو سنة ١٧٣٨م. مرض روسو ثانية مرضا شديدا ، وتخيل أن لديه أمراضا لا علاج لها ، ولا عجب ؛ فقد درس علم وظائف الأعضاء دراسة وافية ، وكان ضعيف البنية، نحيف الجسم، معتل الصحة ، يشكو احتباسا فى البول ، ويشكو الأرق من حين لآخر . وبعد أن شفى من مرضه فكر فى أن يعود إلى بلدة شامْبَرى ليقضى الشتاء مع أمه (مدام دى وَارِنْز)، وأخذ يفكر فى لقاء أمه المعتاد ، وفى تحيتها

له حيث كانت تقول دائما : « آه، هل عدت أيها الطفل ؟ أكانت رحلتك جميلة ؟ » ولكن واأسفاه ! استقبلته هذه المرة استقبالا غير عادى؛ استقبالا فاترا لا تحية فيه ولا مجاملة. ولا غرابة؛ فالآن يشغلها محب جديد، محب من الشبان المتعطلين، المتظاهرين المسرفين، وهو « فِنْتِزْرِيد[1] » يدّعى أنه سيد البيت، وما هو بالسيد، وأنه صاحبه مع أنه عبء عليه .

احتمل روسو هذه المضايقة من هذا المنافس الجديد ، واحتمل تلك الإهانة صابرا، وكان يشغل وقته بين كتبه فى حجرته أحيانا، ويخرج للبكاء والتأوه فى الغابات أحيانا أخرى . حاول أن يستعيد مركزه القديم فى بيت أمه فلم يتمكن ، وحاول أن يبعد هذا المحب الجديد عن أمه ومحبوبته القديمة فلم يستطع ، ثم تهيأت له الفرصة سنة ١٧٤٠ للذهاب إلى مدينة « ليون[2] » فرحل إليها حيث صار معلما لأبناء (م . دى مَابْلى[3]) ، وعاش فى ليون يعلم هؤلاء التلاميذ حينا ، ويقضى أوقات فراغه بين البحث والدراسة الفلسفية حينا آخر . وقد وصف روسو نفسه فى هذه المرحلة من حياته بأنه عديم الصبر ، كثير الانفعال ، سريع التأثر ، فكان مَلَكا إذا وجد الأمور تسير كما ينبغى ، وكان شيطانا إذا وجدها كما لا ينبغى. وقد صرح فى اعترافاته — وهو خير قادة المربين فى المستقبل — بأن هؤلاء التلاميذ أصبحوا فلاسفة ، وأصبح هو طفلا ، ولم ينجح عمليا فى طريقته معهم ؛ فقد أساء معاملتهم، ولم يستعمل الحكمة معهم . ولا عجب ؛ فقد كان ضيق الصدر ، قلق الفكر ، يتذكر حبه القديم لأمه مدام « دِى وَارِنْز » ، ويتذكر الأيام الماضية ، والسنوات السعيدة التى قضاها معها، يتذكر الطبيعة الساحرة، والغابات الجميلة، والكروم الواسعة فى « شَارْمِتْز » ، فحنّ إلى العودة ، وعاد إلى محبوبته القديمة ، فاستقبلته استقبالا حسنا على غير ما كان

---

(١) Vintzenried (٢) Lyons (٣) M. de Mably

ينتظر ، ولكن وجد أن منافسه ما زال يحتل المكان الأول من قلبها ، وأنه أضاع بإسرافه كل ما كانت تملك ، حتى أصبحت فى فقر مدقع ، فتألم روسو لحالها ، وما أصابها من فقر ، فأغلق على نفسه باب حجرته الصغيرة ، وأخذ يؤلف مذكراته الموسيقية بطريقته الجديدة ، وتخيل أنه بهذا المشروع يستطيع أن يجد حظه فى باريس. فصمم على الرحيل إلى باريس ، تاركا قلبه فى « شارمتز » . رحل ومعه روايته الهزلية ، وطريقته الموسيقية ، وليس فى جيبه سوى خمسة عشر جنيهاً .

روسو فى باريس :

سافر إلى باريس وعمره تسع وعشرون سنة ، قضى منها تسعة مع « مدام دى وارنز » بين الحب والعاطفة ، والتمتع بأحضان الطبيعة ، والدراسة الهادئة . سافر إلى باريس سنة ١٧٤١ م ، واستصحب معه كل ما يستطيع من رسائل التوصية من الدوق « دى ريشليو »[1] ومن « م . دى مآبلى » وغيرهما إلى بعض الكتاب والأدباء ، والعظماء والأشراف فى باريس ، ونزل بفندق (سانت كِنْتِين[2]) وهو فندق متواضع للفقراء قرب (لكسمبورج) . تقدم برسائل التوصية إلى ذويها ، فحيوه تحية طيبة ، ولكن هل يستطيع أن يعيش بهذه التحيات المجردة ؟ وهل يستطيع أن يعيش متنقلا مجيبا هذا إلى دعوة الغداء ، أوذاك إلى دعوة العشاء ؟ وقد أظهر فى أثناء تناول الطعام ما جعل المجتمعين حول المائدة يبتسمون ، وجعل الخدم يسخرون منه فى أنفسهم. وهل نعجب إذا لم يعرف روسو آداب الأكل فى ذلك الوسط المتمدين بباريس ،

---

(١) Duc de Richelieu (٢) Hotel St Quentin

وقد عاش حياته الأولى فقيرا فى عزلة ، فى بيئة ريفية لايعرف كيف يأكل على نظام لم يألفه من قبل ؟ مكث روسو بهذا النزُل، وحاول أن يجد وسائل العيش بتعليم الموسيقا. وقد تعرف بكثير من الكتاب، والأدباء والشعراء ومنهم «ڤولتير[١]» «ودى ألمبير[٢]» «ومونتسكيو[٣]» «وبافون[٤]» «وديدرو[٥]» .

وفى الوقت الذى كان يعيش فيه « ڤولتير » عيش العظماء فى قصر من القصور الفخمة أوفندق من الفنادق العظيمة المطلة على نهر السين بين مكتبته الغنية ،يستقبل الضيوف المعجبين به ـ كان جان جاك روسو يجول مشرداً جائعا ضالاً فى شوارع باريس ، ويقيم بهذا الفندق المتواضع .

وفى أغسطس سنة ١٧٤٢ قدم طريقته فى الموسيقا إلى المجمع العلمى[٦] بباريس، فحولت إلى لجنة للفحص عنها ، فرفضت هذه الطريقة وهذا المشروع الموسيقى ،فتألم روسو الألم كله ، واعتقد أن اللجنة ظلمته فى الحكم عليه ، ولكنه إذا أخفق فى مشروعه ، فقد نجح فى التعرف بكثير من كتاب باريس وشعرائها ، وعلمائها وأدبائها وفلاسفتها، وانتفع بآرائهم العلمية والأدبية والفلسفية . والآن وقد رفض مشروعه ، وقيل إنه ليس بجديد ولا بمفيد ، بدأ يتريض فى حدائق لكسمبرج ، ويحفظ كثيرا من الشعر عن ظهر قلب حينا ، ويلعب الشطرنج أحيانا، و بدأت معرفته بـ«ديدرو» تتحول إلى صداقة ، فكلاهما فقير ، وكلاهما أديب ، و بينهما تشابه فى الذوق الأدبى ، والذوق الموسيقى ، وأخذا يبحثان معا بعض المشروعات .

بدأ روسو يحلم بالمستقبل،والمستقبل السعيد ، حتى بعد رفض مشروعه. بدأ يحلم

Voltaire (١) D' Alembert (٢) Montesquieu (٣) Buffon (٤)
Diderot (٥) The Academy of Sciences (٦)

بالمستقبل السعيد ، وهو يزداد كل يوم فقراً على فقر، ومسغبة على مسغبة. ولحسن حظه عطف عليه الأب كاستِل[١] ، فقدمه إلى بعض السيدات اللاتى يجدن الموسيقا ، ومنهن (مدام دِى بُوزِنڤال)[٢] فدعته لزيارتها، فزارها واستقبلته استقبالاً حسنا، وأعجبت بطريقته الموسيقية ، ودعته لتناول طعام الغداء ، وقد وضع الترتيب على أن يتغدى مع الخدم ، ولكن ابتها قد عالجت بحكمتها هذا الخطأ دون أن يشعر ، ودعته لأن يأكل مع الأسرة ، وأظهر فى أثناء الأكل ما يخالف آداب المائدة ، فهزئ منه الخدم والمجتمعون فى أنفسهم ، ثم تعرف بمدام دُوبين[٣] ، وكان يتغدى عندها مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ، ويزورها من غير انقطاع . وهناك اجتمع بكثير من العظماء والسفراء والأشراف. وشرعان ماتعلم آداب المائدة ، وآداب الاجتماع .

ثم اختير كاتم سر لسفير فرنسا[٤] بالبندقية[٥] براتب قدره خمسون جنيها فى السنة ، فحقد عليه زملاؤه ووشوا به، ففصل من عمله بغير سبب، وقد كان مؤديا واجبه خير أداء. وغريب ألا يذكر روسو شيئا عن البندقية ومافيها من جمال ، مع ولعه بالطبيعة ، وحبه للجمال ، ولكنه ذكر فى اعترافاته أنه أعجب ببغيٍّ تدعى « زُوليتا » وتألم لها ، وبكى لحالها ؛ فقد كانت مع ذكائها وجمالها تعرض نفسها رخيصة لمن يريدها . ثم عاد إلى باريس ، ونزل كعادته بفندق (سانت كِنْتين[٦]) وهو غير بعيد من السُّربُون[٧] .

---

(١) Father Castel (٢) Madame de Bouzenval (٣) Madame Dupin

(٤) هو : M. Montaigu the French ambassador (٥) Venice

(٦) Hotel St Quentin (٧) The Sorbonne

تريزلى فاسور[1]، شريكته فى حياته المقبلة :

فى فندق (سانت كِنتين) تعرف روسو بفتاة تبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة ، تشتغل خادمة فى الفندق هى « تريزلى فاسُور » وهى فتاة ريفية كثيرة الحياء ، طيبة القلب ، تبدو عليها السذاجة والغباوة ، وهى من أسرة فقيرة فى « أورليان ». وكان لهذا التعارف أثر كبير فى حياة روسو ، أثر فى سعادته حيناً، وفى شقائه أحياناً . اعتادت هذه الفتاة أن تجلس على المائدة مع سيدتها وغيرها من النازلين بالفندق ، ومنهم السيئ الخلق ، والبذىء الكلام ، والغليظ الطبع ؛ ممن لم يجدوا ثقافة ولا تهذيباً . وكثيراً ما كانوا يسخرون منها ، ويهزءون بها ، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها . فتألم روسو لحالها ، وأشفق عليها ، وتقدم إليها لينتشلها من المجتمع الفاسد الذى يحيط بها ، وتحول ألمه لها وعطفه عليها إلى حب ، فأحب تلك الفتاة وأحبته ، واتخذها شريكة له فى حياته ، واعترفت له بخطيئتها فى ماضيها ، وانتقلا من هذا الفندق ، واستمرت الصلة بينهما على أن تكون شريكته له فى حياته تشاركه فى السراء والضراء ، والسعادة والشقاء .

استمرت هذه الصلة خمساً وعشرين، أو ستا وعشرين سنة ، حتى النهاية المحزنة التى انتهت بها حياة روسو . أعجبت تلك الفتاة بروسو كل الإعجاب، وأعجب بها ، واعتقد أنها حسنة البصيرة، وأنها أنقذته من كثير من المتاعب، وقد كانت سبباً فى كثير من شقائه فى حياته ، سبباً فى كثير من الناقدين له ولها ، وقد ذكر روسو أنها تستحق التقدير ، وتعترف بالجميل .

كانت (تريز) بلهاء لا تعرف المكر والخديعة ، والحيل والاحتيال ، ولا تستطيع

---

(١) Therese Le Vasseur

أن تفهم روسو ، ولا أن تقدره حق قدره ، ولا أن تشاركه آراءه ، ولا أن تساعده من الناحية العلمية ؛ فقد كانت غير مثقفة ، ضعيفة من الناحيـة العقلية ، فلم تستطع أن تتعلم القراءة ، ولم تستطع الكتابة إلا بصعوبة ، ولم يمكنها معرفة أشهر العـام بالترتيب ، ولم يكن فى استطاعتها عد شىء من النقود ، أو معرفة أثمان الأشياء. حاول روسو عبثا أن يعلمها مدة شهر معرفة الوقت من الساعة الشمسية فلم ينجح فى محاولته ، ولم تستطع أن تميز أرقام الساعة بعضها من بعض . كانت تقول الكلمة وتقصد ضدها ، ولا يمكنها أن تدرك أن أربعة وأربعة ثمانيـة ، وأن شهر أبريل يلى شهر مارس مثلا . ولم تكن ضعيفة العقل فحسب ، بل كانت كثيرة النزاع والمشاجرة ، محبة للغيبة والنميمة ، شرهة فى الحصول على المال. ومع هذا كله ، ومع هـذه العيوب العقلية والخلقية كان يعجب بها روسو ، وينظر إليها بعين الحب والعطف ، ويلتمس لها المعذرة فى جهلها ، وقلة إدراكها ، ويشعر بأنها بركة له . وبدلا من أن يحلل أخلاقها وعقليتها ، ويفكر فى تربيتها وأسرتها ، تأثر بالنظرة الأولى لها ، تأثر بجمالها ، ولم يفكر إلا فى صوتها ونظراتها ، فأحبها وانتشلها من الوسط الذى يحيط بها ، ولم يفكر فى أكثر من الناحية الإنسانية والعاطفية .

عاش روسو مع تريز عيشة موفقة كما يعيش مع أذكى سيدة فى العالم . هـذا ما صرح به روسو . ولا عجب ؛ ففى الوقت الذى اتصل بها لم يكن هنـاك فرق كبير بينهما فى الناحية الاجتماعية أو المالية ؛ فقد نشأ فقيرا ، وعاش طول حياته فقيرا. كان يجد لذة كبيرة فى أن يأخـذها معه خارج باريس ، ليقضيا بعض الوقت فى مقهى أو فندق ؛ حيث يجلسان معا ، أو يسيران للتمتع بالمناظر الطبيعية ، ويتناولان طعاما يحتوى قطعة من الخبز ، وأخرى من الجبن ، وقليلا من الكريز ، ومن الشراب.

وقد يطول بهما الجلوس حتى ينتصف الليل . وقد كان روسو يجد فى هذه الحياة السعادة التى لا يمكن أن توصف .

أما خَتَنَته[1] فقد كانت خشنة الطبع، كثيرة الشره، سببت له كثيراً من المتاعب، وكلفته ما فوق طاقته من المال ، وأحضرت أفراد أسرتها من «أورليان» ليعولهم روسو فى باريس ، وهم سبعة أو ثمانية ، وتعلقوا بروسو، وكانوا عبئاً ثقيلا عليه ، وأظهروا الحب لتريز بعد أن كانوا يسيئون معاملتها، وأخذوا يسرقون من تريز كما يسرقون منه من حيث لا يشعر هو أو تشعر هى . وتكفل روسو بإطعامهم وكسوتهم، وهو الفقير الذى يحتاج إلى من يعينه ويكفله، ويطعمه وينفق عليه . وقد احتمل روسو كثيراً فى إرضاء (تريز) شريكته فى حياته .

لم يفكر روسو فى أكثر من أن يعيش ، ولم ينس أنه الغلام المشرد ، والشاب المتعطل ، والصانع المخفق ، والمعلم الجائع ، فعاش معها راضيا ، كأنه يعيش مع سيدة مثقفة مهذبة تتصف بالنبوغ والعبقرية .

لم يشعر روسو بفرق كبير بينه وبينها، ولم يبال بجهلها بشهور العام، ولا جهلها بجدول الضرب، ولم يكترث للناحية العقلية ، ونسى نفسه وذكاءه ، وتجاهل عبقريته ونبوغه، ورضى بما أعطاه الله . عاش معها سعيداً قانعاً راضياً اثنتى عشرة سنة، وهى المدة الأولى من حياتهما ، وعرض نفسه لنقد أصدقائه ، لشرهها وشره أسرتها ، وسوء منبتها ، وكثرة غباوتها . وكان فى استطاعة روسو أن يفارقها ، ولكن ما ذنبها إذا كانت فقيرة ؟ وما ذنبها إذا كانت أمية لا تقرأ ولا تكتب ؟ وما ذنبها إذا كانت بلهاء ضعيفة الإدراك ، قليلة التفكير ؟ لقد وهب الله لها جمالاً غطى على غباوتها ، وصوتا

---

(١) أم زوجته .

غطى على بلاهتها ، فاكتفى روسو بهذا الجمال ، اكتفى بحسن مشورتها و بصيرتها على حسب ما كان يعتقد .

عاش روسو فى النصف الأول من حياته الزوجية سعيداً ، وشعر مع تلك الخادم بالسعادة التى شعر بها «أديسون[١]» مع زوجه « الكونتس[٢] » ، والتى شعر بها ڤولتير مع زوجه « المركيزة » ، و إننالا ننكر على روسو أن يتزوج تلك المرأة الفقيرة ؛ فقد اعتاد الفقر والجوع ، واستهان بالأغنياء ، واحتقر العلوم والفنون ، وكان ضد النظام الاجتماعى والتربية الاجتماعية . ومَن تلك السيدة المثقفة ، الشريفة المهذبة التى كانت ترضى بروسو زوجاً لها ؟ وقد شعر فيما بعد بالخطأ الذى ارتكبه فى أن يعيش مع زوج لا تستطيع أن تشاركه فى حياته وآرائه ومشروعاته ، وقال فى نهاية حياته : إنه لم ير أحداً سعيداً ، وكان قلبه قانعاً بتريز ، راضيا عنها ، فقلبها كان قلب ملَك فى نظره ، وخلق كل منهما للآخر ، وكانت معاملة روسو لها تخالف معاملته لغيرها من الناس ، وقد كان يحبها حباً جماً ، ويثق بها ثقة كبيرة ، فى حين أنه كان قليل الثقة بأصدقائه .

و بمضى الزمن تغير حب تريز له ؛ فهو يقول إنه بعد ست عشرة سنة أو سبع عشرة من حياتهما معاً بدأ يشعر بأنها ليست له ، وليس لها ؛ فقد اختلفت عما كانت عليه فى النصف الأول من حياتهما معاً . ففى سنة ١٧٦٢م . أصبحت لا تكترث له ، ولا تفكر فيه . وفى سنة ١٧٦٩ طلبت منه الفراق ، أى قبل وفاته بتسع سنوات ، فى الوقت الذى يشعر فيه بالحاجة إلى الراحة والعناية والعطف ، والشريكة المخلصة فى الحياة ؛ لكبر سنه وشيخوخته . والحق أنه كان من الخير لتلك المرأة أن تتزوج خادماً أو سائقاً ، وأن يتزوج روسو امرأة ذكية مثقفة تستطيع أن تشاركه فى حياته العلمية والعملية .

---

(١) Addison : (١٦٧٢ — ١٧١٩م .) كاتب إنجليزى جيل الذوق ، دقيق الأسلوب .

(٢) Countess

فى الوقت الذى اتصل فيه روسو بتريز وهو بباريس ، كان يكتب رواية من رواياته الهزلية، وهى رواية « نَرْسِيس[١] ». وبعد أن انتهى من كتابتها قدمها إلى أحد الملاهى ، فرفضها ، فكتب رواية موسيقية أخرى هى رواية (أَلْمِيز جَالَانْت[٢]) أو «الشيطانات الرقيقات» ، فلم تقبل فى (الأوبرا) ، فلكى يستعين على العيش والحياة عطفت عليه (مدام دُوبِين[٣]) ، واتخذته كاتم سرها بتسعمائة فرنك فى العام ، فكان يعمل نهاراً لدى تلك السيدة ، ويذهب ليلا ليتناول طعام العشاء مع تريز فى مسكنه المتواضع. وقد أتيحت له الفرصة ليتصل بكثير من الأغنياء والمثقفين من أصدقاء «مدام دُوبِين» . وغريب أن روسو لم يقطع عن ذم الأغنياء والقسوة عليهم فى أحكامه ، وقد كان لهم الفضل عليه فى كثير من المواقف .

وكان أقرب صديق يتودد إليه ويتصل به فى باريس فى ذلك الحين هو «دِيدْرُو» ؛ فكانا يتقابلان مرة فى كل أسبوع ، ليتناولا الطعام معا ، ويتحدثا بكل حرية عن الموسيقا والفن ، والفلسفة والأدب والدين.

فى هذا الوقت ولدت تريز طفلا ، فنصح له أحد أصدقائه بإرساله إلى ملجأ اللقطاء؛ ليخفف عن نفسه متاعب تربيته ، فاتفق روسو مع تريز على تسليم طفلهما الأول إلى الملجأ، فرضيت الأم مكرهة ، وقلبها يحترق . ولم يبد روسو أى اعتراض ، ولم يشعر نحو هذا الطفل بما يشعر به الآباء بالفطرة نحو أبنائهم. وغريب أن يترك الطفل فى صندوق الملجأ من غير أن يذكر له اسم ، أو يترك عنوان لأبيه أو أمه ، أو تترك له بطاقة يعرف بها فى المستقبل .

وبعد سنتين ولد لهما طفل آخر ، فأرسل إلى الملجأ كما أرسل الأول ، بالطريقة

---

(١) Narcisse (٢) The Muses Galantes (٣) Madame Dupin

نفسها ، وهكذا أرسل خمسة أطفال إلى الملجأ . وفى كل مرة كانت الأم المسكينة تتألم ولا تجد من يشاركها الألم. ولم يكترث لذلك جان جاك، ولم يجد فى هذا العمل غضاضة. وليس من السهل أن نتركه من غير نقد أو اعتراض ، وبسفسطته التمس لنفسه الأعذار ، فما ذا نقول عنه ؟ ماذا نقول عن هذه الجرائم التى تأباها الغرائز الإنسانية ، والفطرة البشرية ؟ وقد كتب سنة ١٧٥١ م . إلى «مدام دى فرَانكُل[٤]» رسالة يدافع فيها عن نفسه ، وعن إرساله أبناءه الخمسة إلى الملجأ قائلا :

«إذا كان الشقاء قد اغتصب منه قوة أداء الواجب نحو أبنائه، فهو يستحق العطف ، ولا يستحق اللوم، ولا يستحق أن يعيِّره الناس ؛ فقد كان مضطرًّا أن يعمل ليكسب خبزه بعرق جبينه » .

وكيف يستطيع أن يكسب عيشه ، ولم تترك له الاضطرابات المنزلية فرصة للهدوء ، وقد فضل أن يكون أبناؤه يتامى ؛ كى لا يعيشوا معيشة البؤس والشقاء مع أبيهم ، فإذا لم يجدوا فى الملجأ الوسائل الكمالية للراحة والمتعة ؛ فإنهم يجدون على الأقل الوسائل الضرورية للحياة. وإذا لم يربوا ليكونوا عظماء ، فإنهم يربون ليكونوا عمالا أقوياء الأجسام. وقد رأى روسو فى ذلك العصر أن من الخير للإنسان الفقير أن يكون صانعا أو (ميكانيكيا) لا أن يكون كاتبا أو أديبا أو مؤلفا . وقد لام الأغنياء لأنهم حرموا الفقراء — ومنهم روسو — الوسائل التى بها يعولون أبناءهم وبناتهم.

ويتألم روسو لأنه لم يذق اللذة التى يشعر بها الآباء عند معانقتهم لأبنائهم . وإن هذا الدفاع الذى يدافع به روسو عن نفسه يشبه دفاع المحامى الفرنسى الذى طالب المحكمة بالرأفة بموكله وقد اتهم بقتل والديه قائلا : (رحمة بموكلى فإنه يتيم .) فجان جاك أرسل أطفاله إلى الملجأ ثم أخذ فيما بعد يبكى ويصيح: «رأفة بى ، فإنى لا أطفال لى». فمن الذى حرم هذا اليتيم أبويه ؟ ومن الذى حرم روسو هؤلاء الأطفال ؟

(٤) Madame de Francueil

فهل أراد روسو أن ينقذ أطفاله من هذا العالم القاسى الذى عرفه ، ومن هذه التجارب القاسية التى جربها ؟ يقول : إنه فكر فى مصيرهم ومستقبلهم ، ولم يكن فى مركز يسمح له بتعليمهم . ولو تركهم لأمهم لأساءت تربيتهم ، ولو تركهم لأسرتها لكونت منهم أشخاصا غير مهذبين . والحق أنه فكر فى إراحة نفسه منهم ، فكر فى أن يكون حرا لا يفكر فى أحد ، ولا يزعجه أحد ، ثم أخذ يلوم غيره . لقد كان يحب راحة نفسه أكثر من محبته للأطفال ، ولا يريد أن يحتمل تضحية فى سبيل هذا الحب. كان روسو يرتكب الخطيئة ، ثم يكفر عنها بتوبيخ ضميره ، ولا يتعب نفسه فى التمسك بأداء الواجب ، وفعل الصواب .

وقد نقده خصومه نقداً مرًّا؛ لإرسال أبنائه الخمسة إلى الملجأ، وعدم إظهار الحنو الأبوى نحوهم . أما أنصاره فقالوا إنه كان عاقراً ولم يعقب ولدا ، ولو كانوا أبناءه ما ألقى بهم فى الملجأ واحداً بعد آخر . وقيل إن زوجه لم تلد ، ولكن أمها كانت تدعى حملها ؛ لتأخذ من روسو بقدر ما تستطيع من المال لشرهها وفقرها . وقيل إنه كان يشك فى زوجه ، ولذا لم يفكر الأب فيهم حينما كانت تأخذهم جدتهم إلى الملجأ، ولم يكترث لذلك، ولم يجد عاراً فى إرسالهم، ولم يبد عليه أى حزن. وكانت حاله المالية والاجتماعية عند ولادة ابنه الثانى تسمح له بتربيته ، والقيام بشئونه ، ولكن روسو آثر أن يرسله إلى الملجأ ليكون فلاحا أو عاملا يستطيع فى المستقبل أن يكسب عيشه من عرق جبينه ، ولا يقاسى ما قاساه أبوه من قبله من بؤس وشقاء، وتشرد وعناء. والحق أن فى المسألة غموضا، وأن البيئة كانت فاسدة ، وأن روسو كان كثير التناقض ؛ لهذا لا نستطيع أن نحكم له أو عليه.

طابت (تريز) فراق روسو سنة ١٧٦٩ كما قلنا. وليس هذا بغريب فى أخلاقها ؛ فقد سمحت من قبل بأن يؤخذ أبوها إلى الملجأ ليقضى بقية حياته شقيًّا تعسا ، فليس بعجيب أن تطلب من روسو الآن وهو فى سن الشيخوخة أن تفارقه ؛ فهى لم تنس أنه حملها

على إلقاء أبنائها فى الملجأ، فألقتهم مكرهة، وقلبها يحترق حزنا على أبنائها. وفى أثناء تأليفه وكتابته لكتبه كثيراً ما مكث أسابيع من غير أن يكلمها كلمة واحدة. ومهما يكن السبب فى طلب الفراق، فهو يذكر أنها أرادت أن تفارقه، فى وقت كان فيه محطم القوى، قليل الصبر، كبير السن، كثير الأمراض، لا صديق له ولا معين.

وفى رسالة من رسائله لها يقول:

«لقد عشنا معاً ستًّا وعشرين سنة، كانت من أسعد السنوات، ولا يمكننى أن أكون سعيداً بدونك. وقد حاولت دائماً أن أجعلك سعيدة هانئة. وإنى أرى مع الأسف أن النجاح فى الحياة صعب المرتقى، ولدىَّ من البؤس والشقاء ما لدىَّ. إننى أعلم علم اليقين أن ما طبعت عليه من الشرف والاستقامة لم يتغير، وأن المحبة التى كانت مشتركة بيننا لا تزال فى قلبى. إنك الآن ياعزيزتى لا تجدين مسرة فى مرافقتى؛ فأنت طبيعية مع العالم كله إلا معى. إن من الواجب أن نأخذ أصدقاءنا بأخطائهم، وأن أغفر لك هفواتك كما تغفرين لى هفواتى. فإذا كنت سعيدة معى أمكننى أن أكون سعيداً راضياً. ولكننى أرى رأياً لا مرية فيه؛ أرى أنك لست بسعيدة، وهذا ما يحز فى قلبى، ويجعلنى حزيناً. ولو استطعت أن أجعلك أسعد الناس جميعاً ما ترددت فى ذلك؛ لأكون مستريحاً هادئ البال، ولكن ليس فى استطاعتى أن أفعل أكثر مما فعلت لتكونى سعيدة. وفى تلك اللحظة التى أكتب فيها إليك قد تملكنى الحزن والألم، وليس لدىَّ رغبة حقيقية أكثر من أن أقضى بقية أيامى متصلاً بك كل الاتصال. إنك تعرفين حظى حق المعرفة، وهو حظ لا يستطيع أحد أن يجرؤ على وصفه؛ لأنه ليس هناك من يستطيع أن يصدقه. إننى يا عزيزتى ليس فى نفسى سوى رغبة واحدة، هى أعز رغبة، هى أن أضع كل

قلبي فى قلبك . فحينما كنت أتكلم معك عما لحقنى من المتاعب ، كنت تسهلين هذه المتاعب . وحينما كنت تعطفين على كنت لا أحتاج إلى عطف أى أحد آخر على ، فكنتِ الملجأ الوحيد لى عند الشدة . وكانت ثقتى الخالصة بك لاحد لها . إن روحى لا يمكنها أن تعيش بدونك وبدون عطفك ، ولا تستطيع أن تجد العطف إلا منك ، وإذا أضعت ثقتى بك ، وأجبرتنى على أن أعيش وحيداً ، فأنا ميت لا محالة . وإننى أتمنى أن أموت أفسى ميتة على أن نعيش معاً مع سوء الفهم ، وقلة الثقة ، وعدم الصداقة بيننا . وإنى مستعد أن أقدم لك بنفس راضية أى تضحية تطلبينها ؛ لتكونى سعيدة هانئة . إن لكل منا خطايا نبكى لارتكابها ، ونكفر عنها ، ولكننا لم نرتكب جرائم ، فلنتغاض عن هفواتنا ، ولنتناس تلك الخطايا التى حدثت لنا فى أيامنا الأخيرة . ولنتذكر تلك الأيام الجميلة الخالية ، والأوقات الطاهرة التى قضيناها معاً » .

من هنا نرى أن روسو كان متعلقاً بشريكته فى حياته كل التعلق ، مخلصاً لها كل الإخلاص ، قلبه يفيض حبًّا وعطفاً ، ولكنها لا تقدر هذا الحب والعطف والإخلاص ؛ فقد لطخ الحب من البداية بإرسال أبنائها إلى الملجأ ، وقد شعر الأب والأم بخطئهما فيما بعد ؛ ففى الوقت الذى بدأت فيه صلة روسو بتريز تتكون لم يعرف روسو كيف يكسب عيشه من كتابته أو رواياته الموسيقية .

وغريب أن يُرسل الأولاد الخمسة سنة بعد أخرى إلى صندوق الملجأ ، ولم يُترك مع أحد منهم بطاقة باسم أبويه أو ذويه ، ولا مذكرة بتاريخ ميلاده ، ولا شىء يدل على الأطفال فى المستقبل . ومهما يكن من الأمر فإننا لا نستطيع أن نستبيح هذه القسوة الإنسانية نحو أطفال لا ذنب لهم وأبواهم من الأحياء . ولا غرابة فقد عرف روسو بحبه لنفسه

وعدم المبالاة والاكتراث . وقد قال فى اعترافاته : « إنه فضل أن يربى أطفاله فى الملجأ ليكونوا عمالاً وفلاحين ، لا ليكونوا من الأشراف والخاصة الذين يشتغلون بالصيد والقنص» . و بإرساله أبناءه إلى الملجأ أراد أن يجعلهم أبناء للشعب ، وينفذ رأى أفلاطون فى جمهوريته ، ويكون قدوة لغيره حتى يشعر الناس بواجباتهم نحو الإنسانية، ويعطفوا على هؤلاء اللقطاء الذين يرسلون إلى الملاجئ بغير ذنب جنوه . هذا ما دافع به روسو عن نفسه فى اعترافاته ، وهو دفاع لا يخلو من الاعتراض[1] .

وقبل وفاته بعام أو عامين كتب روسو ما يؤيد به إهمال أطفاله ، وتركهم للملجأ قائلا : إنه خاف على أطفاله قسوة الحياة ، وما فيها من ظلم ، وكان خوفه عليهم من المظالم فى هذه الحياة أكثر من خوفه عليهم وهم فى الملجأ . لقد خاف أن تسىء أمهم تربيتهم . وكيف تحسن هذه الأم تربيتهم ، وقد أوتيت من الجهل والغباوة ما أوتيت ؟ خاف أن يتأثر أبناؤه بأخلاق أسرة أمهم . خاف أن يبث أعداؤه فيهم كراهيتهم لأبيهم .

هذه هى البواعث التى حملت روسو على إهمال تربية أبنائه ، وإرسالهم إلى الملجأ. هذه هى الأسباب التى أدت إلى قسوته على أبنائه ، وقد كان فى استطاعته أن يقوم بما لم تقم به الأم ، وأن يحميهم بقوته وعزيمته من أخلاق أسرتها . وإذا عنى بتربيتهم فمحال أن يكونوا أعداء له يتآمرون على حياته كما تخيل .

---

(١) استمرت تريز شريكة له فى حياته حتى توفى ، وقد كانت السنوات السبع الأخيرة من حياته كلها شقاء وفقراً . وكانت زوجته ضعيفة أثرت فيها الشيخوخة ، ولم تفارقه حتى النفس الأخير من حياته .

وقد كان أكثر حكمة وصوابا حينما كتب سنة ١٧٧٠ إلى (م. دى سانت جرمين[١]) رسالة هامة يدافع فيها عن نفسه ، فى إهماله تربيـة أبنائه قائلا : إن الحاجة وشرف شريكته فى حياته منعاه من القيام بواجبه الأول ، واجبه المقدس نحو تربية أبنائه . بهذا قد اتهم روسو نفسه فى تركه أولاده للملجأ ، وكان حينما يرجع إلى عقله وتفكيره يرى أنه فعـل ما ينبغى أن يفعل ، وحينما يرجع إلى شعوره وقلبه ، يرى أنه فعل ما لا ينبغى أن يفعل .

رسالته إلى صديقة له :

وفى ٢٠ أبريل سنة ١٧٥١ م كتب رسالة إلى (مدام دى فرانكُل[٢]) يقول: «أنت تعرفين حالى ؛ فقد كنت أحصل بصعوبة شديدة على قوتى اليومى ، فكيف أطعم أسرة ؟ إن البواعث بواعث مالية ، وإن شقائى وسوء حظى حرمانى أداء واجب عزيز علىّ ، كنت أود أن أؤديه، فأنا أستحق العطف، ولم أرتكب جريمة أستحق من أجلها التوبيخ والتعيير . وإذا اضطررت إلى أن أتخذ التأليف مهنة لى ، فكيف أجد هدوء البال مع كثرة الأطفال فى المنزل ؟ وكيف أتمكن من كسب عيشى ؟ كيف أعول نفسى وأطفالى وأمهم ؟ لا يا سيدتى ، إن من الخير لهم أن يكونوا يتامى ، لا أن يكونوا أشرارا كأبيهم . ربما تسألين : لماذا لم أتزوج[٣] ؟ اسألى ياسيدتى هـذا السؤال قوانينكم الظالمة . إن من الواجب ألا يكون لنا أطفال إذا كنا لا نستطيع أن نعولهم . عفوا أيتها السيدة ! إن الطبيعة تتطلب منا أن يكون لنا ذرية ما دامت الأرض تخرج طعاما يكفى الجميع ، ولـكن الأغنياء من طبقتك هم الذين

---

(١) M - de St -Germain (٢) Madame de Francueil

(٣) كانت تريزا شريكة ورفيقة لروسو فى حياته ، ولم يتزوجها إلا بعـد تعارفهما خمس وعشرين سنة كما سنفصل ذلك فيما بعد .

حرمونى الخبز لأطفالى . . . إنى أعلم أن اللقطاء لايربون تربية رفاهية ، وهذا خير لهم حتى يصيروا أقوياء وشجعانا ليس لديهم شيء من الكماليات ، ولكن لديهم كل الضروريات. إن الملاجئ لاتخلق منهم رجالا مهذبين[1] ، ولكنها تخلق منهم صناعا ماهرين ، وفلاحين صابرين ... إنهم لا يتعلمون الرقص أو ركوب الخيل ، ولكن لديهم أرجلا لاتشعر بالتعب. إننى لن أجعل منهم مؤلفين ولا كتابا، ولن أمرنهم على إمساك القلم ، ولكنى سأمرنهم على إمساك المحراث والمبرد والمسحج ، والآلات التى تقودهم إلى أن يحيوا حياة صحية طاهرة كلها عمل . . . لقد حرمت نفسى السرور برؤيتهم، ولم أذق مطلقالذة معانقة الأب لبنيه . . . وأسفاه ! فكما أخبرتك من قبل قد أنقذتهم من الشقاء ، وجعلت نفسى شقيا » .

وبهذه الفصاحة والصراحة ، والقوة والسفسطة ملك روسو عقول القراء .

وربما يلاحظ فى هذه الرسالة أن روسو بحديثه عن الأغنياء من الأطفال ، وأخذهم الخبز من أفواه الفقراء منهم ، قد ذكر مبادئ جعلت لروسو فيما بعد اسما خالدا .

ويتضح من هذه الرسالة أن الباعث الحقيقى على إرسال الأطفال للملجأ كان ماديا؛ ففقره هو الذى اضطره إلى هذا الخطأ ؛ فهو لم يستطع أن يعول أطفاله الخمسة مع ثمانية من أسرة أمهم ، وقد كان محبا لنفسه ، فلم يرد أن يزعجه ، أو يقلق راحته أحد من الأطفال وهو يؤلف . إنه يدعو إلى العمل والاعتماد على النفس ؛ لأن النعمة لا تدوم .

ويجب علينا أن نتذكر أن إرسال الأطفال إلى الملاجئ كان أمرا عاديا فى القرن

---

(١) Gentlemen

الثامن عشر فى فرنسا ، فقد كانت روابط الأسرة مفككة منحلة نظريا وعمليا ، فقد كانت الزوجة لا تجد عاراً فى أن ترافق رفيقا غير زوجها . وكان الزوج لا يجد منقصة فى أن يحب رفيقة أخرى غير زوجه ، وكان كل منهما يعلم أحوال الآخر ، فروسو لم يدع إلى إرسال الأولاد إلى الملجأ ، ولم يضع نظرية اجتماعية جديدة فى هذه الناحية ، بل أنبه ضميره ، واعترف بسوء فعلته ، وبخطيئته التى لا تغتفر ، وقد كفر عن تلك الخطيئة بتأليف أعظم كتاب فى التربية وهو « إميل » أو « إنجيل التربية » فى القرن الثامن عشر . وقد ذكر فيه واجب الآباء نحو الأبناء ، وواجب الأمهات نحو الأبناء .

وإننا مع اعترافنا بخطأ روسو فى إرسال أبنائه إلى الملجأ خوفا من الفقر ، وخوفا من التبعة نرى أنه لو وثق بالله لعرف أن من يخلق الفم يرسل إليه الطعام . « وما مِنْ دابَّةٍ فى الأرضِ إلا على اللهِ رزقُها » . وإن إرسال الأطفال إلى الملاجئ يشجع الآباء والأمهات على حب النفس ، ووضعهم أحمالهم على أكتاف غيرهم ، ويؤدى إلى القسوة والفظاظة والغلظة ، ويحرم الأبناء عطف الآباء ، والآباء محبة الأبناء . ومن الخطأ أن يلد الإنسان أطفالا ليتركهم إلى ملاجئ الإحسان ، أما اليتامى واللقطاء فتسليمهم إلى الملجأ حيث يجدون التربية والعناية خير من تركهم مهملين فى البيت أو الطريق .

وفى سنة ١٧٦١م بذل المرشال (دى لَكْسِمْبُرج[1]) مجهوداً يشكر رأفة بروسو المسكين ، لمعرفة أبنائه فى الملجأ ، ولكنه لم يوفق إلى معرفتهم ؛ فلم يكن هناك شىء يدل عليهم ، أو علامة يعرفون بها ، أو اسم يشير إليهم ، فعاش أبناؤه وبناته فى هذا العالم لا يعرفون لهم أبا ولا أما ، ولا يعرف أحدهم الآخر ، ولا يميز الأخ أخاه

(١) The Marechale de Luxembourg

أوأخته ، ولم يخف روسو على (المارشال) رأيه فى أنه لا فائدة من البحث ، لأنه ليس فى استطاعة الملجأ أن يرد إليه أبناءه وبناته ؛ إذ كتب إليه روسو يقول : «لقد تأخرنا كثيرا ، وكثيرا جدا فى البحث ، وإن هذا البحث يسرنى من أجل شخصية أخرى هى تريز أكثر من سرورى لنفسى » .

وقد ذكر روسو فى «اعترافاته»[1] أنه تزوج تريز بعد أن تعارفا بخمس وعشرين سنة ، ولا يمكننا أن نقول إنه احتفل بالزواج الاحتفال المعتاد؛ فكل ما حدث هو أنه جلس على منضدة مع تريز، ومعهما ضيفان كبيران؛ أحدهما عمدة البلدة ، والآخر من الأصدقاء، وصرح أمامهما بأنها زوجته، وفى ذلك يقول: «لقد تمت هذه الخطبة بكل سهولة وإخلاص، بحضور رجلين من ذوى الفضل والشرف». وفى أثناء هذا الاحتفال العادى أخذ الزوجان يبكيان. وبهذه الوسيلة وضع روسو مبدأ للزواج العرفى بحضور اثنين من الشهود. والحق أن النفور كان شديداً بين روسو وتريز فى هذا العهد ، وكانت حياتهما غير سعيدة ، لا هدوء فيها ولا سعادة ، وظن روسو أنه بهذا الاحتفال ، وبتلك الكلمات التى قالها يغير قلب زوجته ، ويزيل ما فى نفسها ، ويجعل حياتهما هادئة سعيدة ، كلها ثقة ومحبة ، وشعور متبادل ، كما كانت حياتهما الأولى معا حينما بدأ تعارفهما ، واقتنعت بحياتها معه ، واقتنع بحياته معها . وقد نجح روسو فى أنها لازمته ، ولم تنفذ رغبتها فى فراقه ، وعاشت معه حتى نهاية حياته ، تلك الحياة المحزنة ؛ فقد عاش فقيرا ، وكانت حياته كلها مملوءة بالآلام والأحزان ، والعذاب والاضطهاد ، ولكنه ترك ثروة علمية تربيية اجتماعية سياسية اقتصادية خلدت اسمه ، وجعلته من عظماء الرجال الذين عاشوا فى تلك القرون المظلمة .

---

(١) The Confessions of Rousseau

أخـــلاق روسو وصفاته

إن هذا المربى العظيم كان له أكبر الأثر فى عالم التربية والتعليم ، ورسالته فى التربية تعد أعظم الرسالات أثراً فى عالم التربية، ويعد كتابه إميل « إنجيل التربية ». وكان له أكبر الأثر فيمن أتى بعده من فلاسفة التربية من القرن الثامن عشر حتى عصرنا هذا . وغريب أن يؤلف هذا الكتاب رجل لم ينل حظه من التربية الخلقية ، والتربية العلمية المنظمة ، رجل لا يستطيع أن يضبط شعوره وهو يعلم تلاميذه ؛ فكان ملكاً طاهراً إذا سارت الأمور كما ينبغى ، وشيطاناً رجيماً إذا سارت على عكس مايشاء . فإذا لم يفهم تلميذه تأثر كل التأثر . وإذا أخطأ واحد من اثنين عاقب المخطئ وغير المخطئ ، والمذنب وغير المذنب ، عقاباً شديداً . وليست هذه بالطريقة الحازمة التى ينبغى أن يتبعها مربٍّ حكيم فى معاملة التلاميذ .

فالتربية الخلقية التى يجب أن ينال المدرس كل حظه منها لم تكمل لدى روسو؛ فقد كان يسرق الخمر من معلم النقش ، ويشربها سرًّا فى حجرته . وكان يكذب أحياناً بغير مبرر ، ويسرق أشياء تافهة بغير ضرورة ، ويبدو منه أحيانا ما ينافى الأدب ، ولا يلائم آداب الاجتماع . ولا عجب فقد رأى من العذاب ألواناً ، وجرب من الشقاء أنواعاً ، وأحاطت به الحياة القاسية أينما ذهب ، وأينما توجه من طفولته حتى سن الأربعين ، ولازمه الفقر والبؤس حتى ترك هذه الحياة الفانية .

ومع أنه أخفق فى عمله الكتابى ، وفى النقش ، وفى الناحية العملية — لم يكن ذلك لغباوته ، ولكن لسوء معاملة أساتذته له ، وقسوة الحياة ، وظلم البيئة التى كانت تحيط به ؛ فروسو كان ذكيا ذكاء لاحد له ، عيناه براقتان يشع منهما الذكاء .

وقد ظهر ذكاؤه فى أول رسالة كتبها عن أثر العلوم والفنون[١] فى حياة الإنسان ، وفى رسالته « عدم المساواة[٢] » ، وفى كتابه «العقد الاجتماعى[٣]» ، وفى رسالته فى الاقتصاد السياسى[٤]، وفى كتابه « إميل[٥] ».

كان روسو جميل المحيا ، جذاب الابتسامة ، صغير الفم ، معتل الصحة ، مصاباً بكثير من الأمراض ، يخفى آلامه ، ويحفظ شكواه لنفسه . تبدو عليه الكآبة والحزن حينا ، والشقاء أحياناً . تاريخه غريب ، وحياته مملوءة بالتعس والشقاء ، وشخصيته غريبة ، كثير الحب والعشق والغرام ، ارتكب كثيراً من النقائص ، وأخفق فى الأربعين سنة الأولى من حياته . كان سريع التأثر ، قوى الخيال ، شديد الحياء ، يميل إلى العزلة ، ثم كان يميل بعد الأربعين إلى الفضيلة والطهارة ، ويفكر فى الكتابة العلمية ، والعظمة الخلقية ، والكمال العلمى والخلقى والاجتماعى والسياسى . كثيراً ماجاع فى طفولته وغلومته . وكثيرا ما قاسى الآلام والأحزان والعرى فى شبابه وكهولته . وكان وهو فى الأربعين لا يأكل فى المطهى مع الخدم ، ولا يرضى بمعاملة يشعر فيها بالظلم . وقد رأى بنفسه ظلم الأغنياء للضعفاء ، واضطهاد الأغنياء للفقراء فى القرن الثامن عشر . فكان خير مدافع عن المظلومين من هؤلاء وهؤلاء . ونعتقد أن السعادة يجب أن تشترى ، والعظمة يجب أن يقدم لها قربان ، ولا بد للسعادة والعظمة من ثمن . ولا ثمن لهما إلا تحمل المتاعب والآلام . وقد احتمل روسو كثيراً فى سبيل العظمة ، وفى سبيل الدفاع عن المظلومين ، وفى سبيل المبادئ التى حملته ظروف حياته على أن يدين بها .

---

(١) Discourses on Arts & Sciences
(٢) Discourse on Jnequality
(٣) The Social Contract
(٤) An Essay on Political Economy
(٥) Emile

تناقضه الغريب :

كان روسو يناقض نفسه كثيراً ، يستحسن اليوم ما يستقبحه غداً ، ويستقبح اليوم ما يستحسنه غداً؛ فقد كتب كثيراً ضد المرأة، مع أنه كان محبًّا لكثيرات من النساء . كتب ضد الأغنياء والأشراف مع أنه كان مديناً لهم فى حياته ونجاحه . كتب ضد التمثيل مع أنه كتب كثيراً من الروايات التمثيلية ، كتب ضد العلوم والفنون مع أنه بالعلوم والفنون خلد اسمه فى حياته وبعد مماته ، كتب كتابه الخالد فى التربية وهو « إميل » وقد أهمل تربية أولاده وأرسلهم جميعاً إلى الملجأ .

ولا يمكننا أن ننكر أن مشاق الحياة التى أحاطت به ، وقسوة المدرسين ، والبيئة التى اتصل بها ، قادته إلى هفوات وغلطات لا تنتظر من غلام مثقف مؤدب وجد الحياة التى تحيط به سهلة ، والبيئة التى يتصل بها طاهرة ، والمعلمين الذين يعلمونه لا يعرفون القسوة .

أثر البيئة العلمية فى روسو :

كان للبيئة التى يتصل بها روسو كل الاتصال فى باريس أثر كبير فى ثقافته العلمية والأدبية والتربيبية ؛ فقد اتصل بكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة ، والاقتصاديين والسياسيين فى عصر الملك لويس الخامس عشر؛ مثل: دى ألمبير[١] وبَفُون من العلماء، ومارِيفُوكس[٢] ومارْمُونْتِل[٣] من الأدباء ، وديدْرُو وڤولتير من الفلاسفة . وكانت

---

(١) D' Alembert (٢) Marivaux (٣) Marmontel

حجر الاستقبال فى بيوت العظماء والأشراف كسوق عكاظ، يجتمع فيها المثقفون والمثقفات، للنقاش العلمى، والبحث الأدبى، حول أى موضوع من الموضوعات العلمية والأدبية، والاجتماعية والاقتصادية، والفلسفية والسياسية. وكان الرجل لا يُسأل عن أبيه، ولكن كان يُسأل عما لديه من الآراء والأفكار، وما قام به من الأعمال.

وفى كل ليلة من الليالى كانوا يجتمعون لدى شخصية من الشخصيات المعروفة، فليلة لدى مدام دُو بين[١]، وأخرى لدى دوق لـكْسِمْبُرْج[٢]، وثالثة عند البارون دى هُلْبَاك[٣]، ومرة عند مدام جُفْرِين[٤]، وآونة لدى مدام دى إبِنَاى[٥]. فتعرف روسو بكثيرين، وحضر كثيراً من المجتمعات، واشترك فى كثير من المحاضرات والمناظرات والمناقشات.

وكثيراً ما كان يذهب روسو إلى مقهى (ريجنس)[٦] أو غيره ليجتمع ببعض الأصدقاء من الأدباء والشعراء، والممثلين والممثلات، والتحدث معهم حول بعض الروايات الأدبية والتمثيلية. وقرأ كل كتاب حديث أو قديم وصلت إليه يده، فكان عالمـا أديبا موسيقيا، اقتصاديا، سياسيًّا، عالما بالنبات، قائدا فى التربية والتعليم. عذب فى سبيل آرائه، وضحّى براحته فى حياته فى سبيل مبادئه من الحرية والإخاء والمساواة. كتب ما كتب من لآيات البينات فى وقت كانت حرية الرأى فيـه معدومة. وكان الكاتب يعرض نفسه للنفى والتشريد إذا صرح بمـا فى نفسه ضد الظلم والاضطهاد، والقسوة والاستعباد.

---

(١) Madame Dupin (٢) The Duke of Luxembourg
(٣) Baron d' Holback (٤) Madame Geoffrin
(٥) Madame d' Epinay (٦) Café de la Régence

نجاحه الأدبى : رسائله وكتبه

(١) رسالته فى أثر العلوم والفنون

فى تهذيب الأخلاق أو إفسادها

فى سنة ١٧٤٩ كان صديقه الكاتب القدير (دِيدْرُو[١]) سجينا فى (فِنْسِنِيس[٢])؛ ففى يوم من أيام الصيف خرج روسو من باريس ، وذهب ليزور صديقه فى سجنه . وبينما كان سائرا فى طريقه إذ أخذ مجلة من المجلات[٣] ليقرأها ، فرأى بها إعلانا للمجمع العلمى فى (ديجون)[٤] لمسابقة فى الموضوع الآتى : (هل ساعد نجاح العلوم والفنون فى إفساد الأخلاق أو تهذيبها[٥] ؟) .

قرأ روسو هذا الإعلان عن المسابقة ، فتخيل عالما آخر ، وصار رجلا آخر ، وتجمعت الأفكار فى نفسه ، وتكاثرت حتى كاد يغمى عليه من كثرة التفكير . فجلس فى الطريق تحت شجرة ليستريح قليلا ، ودوّن ماحضره من الآراء والأفكار فى مذكرة ، ثم نهض وسار فى طريقه فرحا متأثرا حتى وصل إلى السجن ، وقابل صديقه (دِيدْرُو) ، وذكر له الخبر .

فسأله (دِيدْرُو) عن الجانب الذى يريد أن يختاره ويكتب فيه .

فأجابه روسو أنه سيبرهن على أن للفنون والعلوم أثرا فى إصلاح الأخلاق وتقويمها . فقال (ديدرو) : « إن هذا طريق الجحوش ، وسيسير فيه الكتاب العاديون ، وستكون فيه الأفكار عادية » . ونصح له بأخذ الجانب الآخر وهو : (أثر العلوم والفنون والآداب فى فساد المجتمع) .

---

(١) Diderot (٢) Vincennes

(٣) هى مجلة مركيور فرنسا : Mercure de France

(٤) Academy of Dijon

(٥) Has the progress of the Arts & Sciences helped to corrupt or to purify morals

أراه روسو ما كتبه تحت الشجرة ، فشجعه صديقه على التقدم إلى المسابقة ، فكتب روسو فى الموضوع ، و برهن على أن للعلوم والفنون والآداب أكبر الأثر فى إفساد الأخلاق ، وشقاء الإنسان ، ونادى بالرجوع إلى الطبيعة ، وصاح فى وجه المدنية والترف ، وقال إن المدنية والترف والحضارة من آثار العلوم والفنون والآداب ، وهى سبب فى إفساد الأخلاق .

تفرغ روسو للكتابة فى الموضوع لنيل جائزة المجمع العلمى ، وأخذ يفكر فيه ليلا ونهارا ، صباحا ومساء ، ويقلبه من جميع نواحيه ، فكان إذا أصابه الأرق فكر فى الموضوع ، فتتجمع الأفكار فى نفسه ثم تختفى وينساها ، ولا يستطيع أن يتذكرها ، فرأى أن ينتفع بمعونة حماته (مدام لِى ڤاسُور[1]) ؛ فكانت إذا أقبلت فى الصباح المبكر لإيقاد النار فى حجرته أملى عليها وهو فى الفراش ما ألّفه فى أثناء ليلته .

كتب روسو رسالته بشجاعة ، وكانت آراؤه مبتكرة حديثة ، فكتب ضد العلوم والفنون والآداب ، وضد المجامع العلمية نفسها ، فنال جائزة المجمع العلمى بديجون ، مع أنه كتب ضده ، وأخذ يهزأ بأسلوبه الأدبى القوى بالغنى والثروة ، والترف والحضارة والمدنية ، وقال إنها أصل الرذائل وفساد الأخلاق . وكانت كتابته مملوءة بالقوة والحرارة والعاطفة ، خالية من المنطق والترتيب المنطقى . والحق أن هذه أضعف رسالة من رسائله إذا فكرنا فى النطق والترتيب والنظام . ولا عجب ؛ فهو حديث فى الكتابة ، والكتابة فن لا يستطيع الإنسان أن يجيده مرة واحدة .

و بمعارضته الرأى المعروف وهو أن للعلوم والفنون والآداب كل الأثر فى إصلاح الأخلاق وتهذيبها أظهر قوته وذكاءه ، وقدرته على الابتكار والافتنان . وتحتوى

---

(١) Madame le Vasseur

هذه الرسالة على أصول مبادئه وآرائه وعقائده التى أظهرها فى كتبه المختلفة فيما بعد . ومن تلك الآراء تعرف أخلاق روسو ، وعداءه للتقاليد العادية ، والترف والمدنية ، والمظاهر الاجتماعية ، ونظام الطبقات ، وعداءه لمن يعتدى على الحرية .

وفى الوقت الذى يعتقد فيه كل إنسان أن للعلوم والآداب والفنون أثرا كبيرا فى تهذيب الأخلاق ، نادى روسو بأن لها كل الأثر فى إفساد الأخلاق ، وانتشار الرذائل، فناقض نفسه بنفسه ؛ فهو بالعلم والأدب والفن ارتقى ، وارتفع من الحضيض، ووصل إلى القمة ، ولم يرجع إلى الوراء .

يرى روسو أن الطهارة والفضيلة ، والأمانة والإخلاص ، لا وجود لها إلا فى العصر الذهبى ؛ عصر الرجوع إلى الطبيعة ، ذلك العصر الذى كانت فيه العلوم والفنون مجهولة، حينما كان الإنسان يحيا حياة أولية بدائية، و يعيش معيشة ساذجة. وقد زعم روسو أن الإنسان المتمدن لا يظهر كما هو ، والمجتمع المتمدن لا يظهر بحقيقته . والإنسان المتحضر سيئ الظن بغيره ، قليل الثقة ، كثير الخوف والحقد ، كثير البغض والخيانة، ويخفى هذه الصفات كلها فى نفسه ، و يتظاهر بالأدب والثقافة والعلم ، وما هو بأديب ولا مثقف ولا عالم . وقد فسد خلقيا وأدبيا . وقد ادعى أن بالعلوم والفنون تأخرت مصر واليونان والرومان بعد تقدمها ، وقل الخير فيها بعد أن كان كثيرا ، وانتشر الشر بعد أن كان قليلا ، و بدت بها علامات الضعف والخلاف ، وقد كانت مثلا للأخلاق والفضيلة قبل العلوم والآداب والفنون .

فمصر القوية الجميلة بسمائها وأرضها ونيلها ، الغنية بثروتها وزراعتها وصناعتها، التى حكمت العالم بشجاعتها و بسالتها ـ ضعفت وانحلت قواها حينما انغمست فى الترف

وأساليب الحضارة والمدنيـة التى أنتجتها العلوم والآداب والفنون ، فحكمها اليونان والرومان والعرب والترك .

وقد حل باليونان والرومان ماحل بمصر حينما انغمست كلتاهما فى أساليب الترف والملاذ، والتأنق والتجمل، والتخنث والمدنية وغيرها من آثار العلوم والفنون والآداب.

فروسو كتب ضد العلوم والفنون والآداب ؛ لأنها تؤدى إلى الترف، والترف يؤدى إلى الرذيلة ، وفساد النفوس ، وضعف الأخلاق ، فتضيع الفضيلة ، ويستعبد القوىّ الضعيف، وتضعف الأمم بعد قوتها، وتجبن بعد شجاعتها. وقال إن المدنية كانت سببا فى التعطل والكسل ، وفساد الذوق والتربية والأدب . ففى المدرسة يتعلم الأطفال كل شىء إلا أداء الواجب . وفى الأدب يكتب الأدباء لكسب العيش ، ولا يكتبون شيئا له أثر أو منفعة . وفى المجتمع يتظاهر الناس بالكمال والأدب وهم أبعد الناس عن الكمال والأدب ، والإحسان والطهارة ، والوفاء والإخلاص .

وفى الفلسفة يعلن الفلاسفة عن فلسفتهم وآرائهم ، كما يعلن التاجر الذى كسدت تجارته عن بضاعته الكاسدة فى السوق . ولو أنصف هؤلاء جميعا لدعوا الله أن ينقذهم من شر هذا النوع من الفن والأدب والعلم ، ويمنحهم الجهل والطهارة، والفقر والفضيلة ؛ فهى وحدها تستطيع أن تجعلهم سعداء متمتعين بالسعادة .

هذا ما رآه روسو. و بأسلوبه العذب وروحه القوى، وفصاحته النادرة، وسفسطته الجميلة ، هاجم المجتمع الفرنسى، والمدنية الفرنسية ، والبيئة الفاسدة ، والترف الضار ، وكتب ضد العلوم والفنون والآداب حتى تخيل القارئ أنه يجب عليه أن يحرق كتبه ، و ينقطع عن تربية أولاده وتعليمهم ، و يعود إلى عصر الجهالة ، والوحشية . والحق أن روسو لم يدع إلى إحراق الكتب ، ولم ينادِ بالجهل والرجوع إلى الوراء،

ولـكنه شعر بما يشعر به الفقراء، ورأى أن الترف منبع كل شقاء، والمدنية أصل كل بلاء.

وبهـذه الرسالة نال روسو جائزة المجمع العلمى بديجون ، ووصـل إلى أوج العظمة ، بعد أن كان موسيقيا مخفقا لا يعرفه أحد . وقد أحدثت تلك الرسالة ثورة كبيرة، وجدالًا عنيفا فى فرنسا، وأعجب بها كثير من العلماء والأدباء مثل (دِيدْرُو) الفرنسى ، وجرِم الألمـانى ، وتخاطفها القراء ، من أغنياء وفقراء ، وأصبـح روسو معروفا لـكل إنسان، وعارضها (جُوتْنِيه)، وملك سردينية، وصديقه (بُورْد)، و(ڤولتير). وقال (ڤولتير) : «إنه يدعو إلى الرجوع إلى الجهالة والعصور المتوحشة. ولو اتبع الناس نصيحته لصاروا حيوانات تسير على أربع» .

أحس روسو بالنقد اللاذع الموجه إليه ، والمعارضة القوية التى قام بهـا أعداؤه والحاقدون عليـه ، وأخذ يفـكر فى الرد عليهم ، وتخلص بذكائه ومهارته ، وصرح بأنه لم يقصد إحراق دور الـكتب ، أو إغلاق المدارس والجامعات والمجامع العلمية والأدبية ، ولم يرد الرجوع بالعالم إلى الوراء ، ولـكنه أراد الرجوع إلى الفضيلة ، والبعد عن الترف والرذيلة ، والمساواة بين الأغنياء والفقراء . وبهذا التصريح نادى بالانتفاع بالـكتب والمـكتبات، والمدارس والجامعات، والتمسك بالفضيلة ، والمساواة.

بهذه الرسالة عُدّ روسو من كبار الـكتاب والأدباء ، وبمهاجمته للبيئة الفاسدة ، والمدنية الـكاذبة، والترف المفسد المجتمع ارتفع روسو إلى القمة العالية فوق السحب، وتحققت نبوءة (ديدْرُو) ، ونجح نجـاحا باهرا ، ووفق توفيقا عظيما . وقد أهان روسو بكتابته الأغنياء والغنيات ، والأثرياء والثريات ، وكانت كتابته ضد نظام الطبقات ، وكتب بكل شجاعة ، وذكر آراء لم يجرؤ أحـد أن يذكرها . وقد ساعده أسلوبه

القوى ، وروحه الكبير على الانتصار على معارضيه وحاسديه ، والدفاع عن الفقراء ، ومهاجمة المترفين من الأغنياء ، وبرهن على أن التفرقة بين الأغنياء والفقراء مصدر كل شقاء فى هـذا العالم ، وأنه لا سعادة فى هذه الحياة إلا بالمساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان :

ولقد ذكر روسو أن عدم المساواة هى السبب فى كل شر ، وأن العـلم مقصور على الأثرياء فى ذلك العصر ، وفى الوقت الذى يضيع فيه الأغنياء ثروتهم فى أنواع المسرات والملذات لايجد الفقير ما يكفيه من الطعام ، وفى الوقت الذى لايجد فيه الصانع أو العامل الضروريات يجد الثرى كل الكماليات ، وفى الوقت الذى يجد فيه الغنى الخمر على مائدته لا يجد الفقير ماء صحيا يشربه . وإن فضلات الطعام على موائد الأغنياء تكفى كثيرين من الفقراء .

هذه خلاصة لما ذكره روسو فى رسالته التى هاجم بهـا الأغنياء ، ونادى فيها بالرجوع إلى الطبيعة ، وهجر الملابس المزخرفة ، وعدم التكلف فى الأزياء .

وقد كتب « بَافُون[1] » و « مُونْتِسْكِيُو[2] » من قبل ضد الترف ، ونادى كل منهما بالرجوع إلى الطبيعة ، ولكن لم يستطع أحد من الكتاب أن يكتب بأسلوب كأسلوب روسو ، أو قلم كقلمه ؛ فهو قد وضع قلبه فى كتابته ، وفى وصفه شعور الشعب ، فأثر فى القراء ، وملك قلوب الفقراء والأغنياء على السواء .

---

(١) Buffon : (١٧٠٧ — ١٧٨٨) : عالم فرنسى من علماء التاريخ الطبيعى .

(٢) Montesquieu : كاتب فرنسى كبير ، من كبار رجال السياسة والقانون ، ولد فى ١٨ من يناير سنة ١٦٨٠ ، وتوفى فى ١٠ من فبراير سنة ١٧٥٥ .

على أننا نقول إن العلم الذى لا يؤدى إلى الفضيلة لا يستحق أن يسمى علما ، وبالعلوم والفنون والآداب قد وصلت الأمم المتحضرة اليوم إلى الأخلاق الفاضلة ، والكمال الممكن ، والسعادة التامة ، والإنسانية النادرة ، وهذا كله لا ينافى الرجوع إلى الطبيعة ، والانتفاع بجمالها ، وعدم التكلف فى الحياة ، وترك الترف الذى يؤدى إلى شقاء الفرد والمجتمع .

وصل روسو بهذه الرسالة إلى العظمة التى ينشدها ، وصل إلى القمة بين الكتاب والأدباء ، وأصبح يشار إليه بالبنان ، وصار موضع الإعجاب من الجميع إلا الأعداء ، ولكن مما يؤسف له أنه لم يكمل سروره ؛ فقد ذهب فى عيد الميلاد إلى رحلة من الرحلات ، فسرق صهره ملابسه ، واستغلت « تريز » وأمها اسمه على غير علم منه فى طلب بعض الهدايا من المعجبين به ، وما أكثرهم ! ! فكانت أسرة شريكته فى حياته سببا فى شقائه .

(٢) رسالته فى التفاوت أو عدم المساواة[1]

فى سنة ١٧٥٣ م أعلن المجمع العلمى بديجون عن مسابقة أخرى ، وعين لها جائزة خاصة ، كان موضوعها : « ما الأصول فى عدم المساواة بين الناس ؟ وهل يرضى القانون الطبيعى بعدم المساواة ؟ » وقد شجعه نجاحه فى رسالته عن العلوم والفنون وأثرها فى الأخلاق على أن يحاول الكتابة فى هذا الموضوع ، ويتقدم إلى المسابقة ، فأخذ شريكته (تريز) معه ، وذهبا فى رحلة إلى « سان جرمان » ، ومعهما سيدتان صديقتان ، فمكثوا فى تلك البلدة أسبوعا ، وكان الجو جميلا ، والحياة صافية ، فكان روسو

---

(١) His Discourse on Inequality : رسالته فى التفاوت .

يترك « تريز » معهما ، ويذهب وحده إلى الغابات ليفكر فى الموضوع ، ويكتب ما عنّ له من الأفكار ، وهنا سنحت له الفرصة ليفكر فى الإنسان الأول ، وفى العصور الأولى ، ويوازن بين ابن الطبيعة وابن المدنية والحضارة ، ولكن مما يؤسف له أنه لم ينل الجائزة ، كما كان ينتظر ، ولم يفت ذلك فى عضده ، ونشر الرسالة سنة ١٧٥٤ ، فذاع صيته بين الكتاب والأدباء فى فرنسا وغيرها .

وعرف روسو الآن بأنه معلم للموسيقا ، ومؤلف وكاتب قدير ، قوى الأسلوب شجاع فيما يكتب ، صريح فيما يقول . قرأ المثقفون من الفرنسيين تلك الكتابة المؤثرة ، فأعجبوا بها إعجاب الإنجليز بكتابة « كارليل[1] » الفيلسوف الإنجليزى فى القرن التاسع عشر .

وإن القارئ لروسو يشعر بعدائه للأغنياء والعظماء ، مع أنه كان يعيش معهم ، ويتصل بهم . وفى هذه الرسالة حكم روسو على فساد المجتمع الإنسانى ، وعلل سبب الفساد بعدم المساواة بين أفراد المجتمع فى الفرص والحظوظ ، والمعاملات والحقوق ، وقد كتب ضد المدنية ، وأخذ يشيد بالإنسان الأول ، ذلك الإنسان الطبيعى التقى الطاهر ، وأعجب به الإعجاب كله ، وتصوره نائما تحت شجرة ، يحصل على طعامه بمحاكاة الحيوان ، ويعيش كما يعيش المتوحشون ، ويعود به إلى العصر الحجرى أو العصر الذهبى فى نظر روسو ، حينما كان الإنسان الأول أقوى صحة ، وأشد حرية ، وأكثر طهارة من الإنسان المتمدين . تخيله وهو مقتنع بكوخ من اللَّبِن ، وبملابس من جلد الحيوان ، وزينة من ريش الطيور والصدف ، يعتمد على نفسه فى معيشته ،

---

(١) Carlyle : (١٧٩٥ — ١٨٨١ م .) كاتب إنجليزى كبير ، ومن مؤلفاته (الأبطال وإجلالهم) و (الثورة الفرنسية)

ويقوم بما يستطيع القيام به من عمل . فروسو يريد الرجوع إلى الطبيعة ، وهو ضد المِلْكِيَّة ، ويعدها نوعا من الاغتصاب والسرقة، وضد العبودية والترف والمدنية . وقد أثبت أن المدنية هى السبب فى التفاوت وعدم المساواة بين الإنسان والإنسان، وهى منبع الشقاء فى كل أمة من الأمم ، وقد كتب ضد الفكر والتفكير ، واعتقد اعتقادا غريبا أن الرجل الذى يفكر هو حيوان فاسد المِزاج. ولا عجب ؛ فهو يريد أن يقول : إن التفكير الإنسانى أدى إلى الحضارة والمدنية، وأدى إلى الترف ، وهذه كلها أصل كل شقاء ، وهى السبب فى عدم المساواة . وقد بيَّن أن الرجوع بالإنسان إلى حاله الطبيعية يؤدى إلى المساواة ، وقد تكلم عن الحكومة وأنواعها . والحكومة فى نظرنا يجب أن تحكم لصالح الشعب، وتفكر فى الشعب، وتعمل للشعب . وفى نهاية رسالته يقول : « إن مما يضاد قانون الطبيعة أن يأمر طفل شيخا ، وأن يقود رجل معتوه حكيما من الحكماء ، وأن يتحكم قليل من الناس فى حين أن الكثيرين لا يجدون الضروريات » . وقد كرر الثائرون فى باريس هذه الكلمات الأخيرة بعد نشر هذه الرسالة بأربعين سنة فى مجتمعاتهم ومنشوراتهم، وخطبهم التى أثارت كراهية الجمهور لمن يظلمه.

وفى سنة ١٧٩٢م أعاد «مارات[1]» الكاتب الفرنسى هذه الكلمات، وخاطب بها المجتمع الفرنسى الجائع فى قوله: «إن الأشراف لا حق لهم فى أن يعيشوا مترفين وأنتم فى حاجة إلى الخبز . اجمعوا أنفسكم جماعات ، واتحدوا ، وقسموا الأراضى وثروة الأشقياء الذين دفنوا تحت الأرض ما لديهم من الذهب ؛ ليجعلوكم جياعا خاضعين مستعبدين » .

---

(١) Marat : من أكبر قادة الثورة الفرنسية (١٧٤٣ — ١٧٩٣ م) ، وقد نقل رفاته إلى (البانثيون) مدفن العظماء بباريس باحتفال عظيم .

(٣) رسالته فى الاقتصاد السياسى[١]

فى سنة ١٧٥٣ كتب روسو رسالة فى الاقتصاد السياسى ، ضمنها آراءه السياسية ، ولم يذكر فيها كثيرا من الشئون الاقتصادية ، بل ذكر فيها مبادئه السياسية والاجتماعية ، وهى تدل على شعوره القوى نحو (الديمقراطية) . ومن هذه المبادئ :

١ — يجب أن يعبر القانون عن إرادة الشعب .

٢ — يجب أن تقوم الحكومة بتعليم جميع الأطفال تعليما حقا تتحقق فيه المساواة ، حتى يعتاد كل طفل المبادئ (الديمقراطية) ، ويتكون نشء كامل ، ولا يكون هناك نظام طبقات أو فرق كبير ، بين الغنى والفقير .

٣ — يجب أن تفرض الضرائب على الأغنياء لا الفقراء ، ولا تفرض على الضروريات بل على الكماليات فى الحياة . فلا توضع ضرائب على القمح والملح ، بل توضع على المرايا والأزياء الرسمية والقصور . ولا تكلف الطبقات العاملة ضرائب ، بل يكلف الدجالون والمشعوذون والمغنون والممثلون تلك الضرائب .

هذه بعض المبادئ الاقتصادية التى ذكرها روسو فى رسالته فى القرن الثامن عشر ، وبتنفيذها تقل الفروق بين الطبقات فى الشعب الواحد .

وقد انتقد روسو أن تكون مصالح المجتمع مقصورة على الأقوياء والأغنياء ، وأن تجعل الوظائف الكبيرة لهم وحدهم ، وتقصر الاستثناءات والترقيات عليهم

---

(١) His Essay on Political Economy

دون غيرهم . ومن الأمثلة التى أخذ يندد بها أن الغنى إذا سرق أو ارتكب القبيح كان آمنا من العقاب . و إذا ضرب أحدا ، أو اعتدى على أحد ، أوقتل بريئا لايجرؤ أحد أن يضربه أو يعتدى عليه أو يقتله كما فعل ، ونسيت خطاياه وجرائمه بعد بضعة شهور . و إذا ضاع له شيء أو سرقه سارق قام الشُّرَط ، وأخذوا يبحثون عن السارق. وويل للفقير المسكين الذى يشتبهون فيه . و إذا مر الغنى بمكان خطر وجد حراسا يحرسونه من كل جانب . و إذا أحدث أحد صوتا أوضوضاء بالقرب من منزله كانت إشارته كافية لإسكات الجميع . و إذا انكسر محور العجلة التى يركبها جرى كل إنسان لمساعدته . و إذا مر سائق فقير فى طريق الرجل الغنى كان الخدم مستعدين لضرب السائق . وقد تدوس عجلة الغنى أحد العمال السائرين على أقدامهم إلى أعمالهم ، فلا يجرؤ أحد على وقف هذا الغنى المعتدى عند حده . و إذا احتاج الشعب إلى جنود أخذ جنوده من الفقراء . وما أسوأ حظ الرجل الفقير إذا كان ذا شعور قوى ولديه بنت ذات جمال ، وكان جاره من الأغنياء أو الأقوياء . وكلما اشتدت حاجة الفقير إلى العطف رفض المجتمع حاجته وقسا عليه . فالفقير كان يحتمل كثيرا، ويقاسى كثيرا ، ولم يكن له من الحقوق مثل ما للغنى، وكان عليه من الواجبات أكثر مما على الغنى .

هذه خلاصة لنقد روسو للحالة الاجتماعية فى فرنسا ، ومعاملة الفقراء فى القرن الثامن عشر . وقد شاهد هذه المناظر بنفسه فى جولاته الكثيرة ، ورحلاته المختلفة من بلدة إلى بلدة ، ومن قرية إلى أخرى . وقد قاسى روسو نفسه ما قاساه الفقراء فى هذا العصر ، وجرب ماجربوا ، ورأى كيف يعيشون فى أكواخ غير صحية لا نوافذ لها، وقد لحظ الفلاحين الأشقياء وهم جياع يأكلون الخبز القفار ، ويشربون مياها غير صحية ، عراة يلبسون خرقا بالية ، لا تستر أجسامهم الضعيفة ، أثقلت كواهلهم

بضريبة الملح والقمح وضريبة الخمور ، ولا يعفون إلا من الضرائب التى يعفى منها الأغنياء والنبلاء ، ويؤخذ منهم نصف أرباحهم . وكان الفقراء يقضون ثلاثة أشهر من العام فى أعمال إجبارية ، ليصلحوا الطرق ، ويجعلوها معبدة لعجلات الأغنياء ، وحبوبهم تأكلها زرافات من الحمام الذى يقتنيه الأغنياء ، وتداس حقولهم ومحصولاتهم عندما يقوم الأغنياء بالصيد والقنص ، ويؤخذ أبناؤهم من الحقول ؛ ليرسلوا إلى الجيش ، وليعيشوا مع المشردين والمنفيين ، فتزداد الطبقة المجرمة .

وفى الوقت الذى كتب فيه روسو هذه الرسالة فى الاقتصاد السياسى كان القحط عاما فى جميع أنحاء فرنسا ، وكان الفقراء يأكلون الحشائش كما تأكل الأغنام ، ويموتون كما يموت الذباب ، فى حين كان الأغنياء فى رغد من العيش ، يتمتعون بكل ما لذ وطاب من متع الحياة ، يسمعون كثيرا عما لحق الفقراء من الجوع والعرى ، والبؤس والشقاء فى المقاطعات المختلفة ، وكأنهم لم يسمعوا شيئا ، ولم يشعروا بشىء . لم يتألم لهم أحد ، ولم يفكر فيهم إنسان ، فضج الفقراء ، وصاحوا صيحات الألم والاحتجاج ، ولم يبالوا بنتيجة ، ولم يخافوا عاقبة ، ولم يفكروا إلا فيما لحقهم من المظالم . وحينما يصل الشعب إلى هذه الدرجة التى لا يكترث فيها لشىء ، ولم يبال بما يحدث استحق هذا الشعب كل شىء . فالضجيج يؤدى إلى الاضطراب ، والاضطراب يؤدى إلى العصيان ، والعصيان يؤدى إلى الثورة .

فى الوقت الذى كان يشعر فيه الفقراء بالجوع والعرى والاضطراب والإرهاق والظلم كان الأغنياء يحابون كل المحاباة ، وتدفع لهم معاشات لا يستحقونها ، وتخصص لهم رواتب لا يؤدون بدلها خدمة لوطنهم ، ويعينون فى أكبر المراكز . ولقد قيل :

إن حلاقا خصص له معاش قدره ألف وسبعمائة فرنك فى السنة لقيامه بخدمة طفلة من طبقة الأشراف توفيت وعمرها ثلاث سنوات قبل أن يكون لها شعر يمكن أن يحلق .

لهذا كله كان روسو ضد الأغنياء المحبين لأنفسهم ، وكان قلبه ضد طبقة الأشراف. وذات يوم قال (لمدام دى إبناى[1]) : « إن الأمل فى حياة أخرى يجعلنى أحتمل الفظائع التى يرتكبها الأشراف ، فهم يسرون بشقاء آلاف الآلاف من أناس كان ينبغى أن يجعلوهم سعداء . إننى لا أحمل حقدا لأحد ، ولا أفكر فى إيذاء أحد ، ولكن حينما أرى الظلم فى هذا العالم أسلى نفسى بالتفكير فى أن هناك جهنم لهؤلاء الظالمين » .

فروسو كان ضد الملكية الخاصة ؛ لاعتقاده أنها السبب فى عدم المساواة ، والسبب فيما يرتكبه الغنى من رذائل، وما يلحق الفقير من شقاء ، وما يلحق الإنسانية من ذل وعبودية ، وبهذه الرسالة وضع أسس مبدأ تكافؤ الفرص ، ونادى بالعدالة الاجتماعية، وصاح ضد الظلم والعبودية والقوانين الظالمة .

وبعد أن كتب هذه الرسالة سافر إلى جنيف ، موطنه الأصلى ، ومسقط رأسه سنة ١٧٥٤ م ، ومعه « تريز » شريكته فى حياته ، وقد مر فى طريقه بصديقته القديمة، وأمه المحبوبة « مدام دى وارنز » ، بعد أن غاب عنها ثلاث عشرة سنة ، فرآها سيئة الحال ، منهوكة القوى ، يبدو عليها الفقر والبؤس ، فتألم لها الألم كله ، وساعدها بما فى وسعه من الناحية المالية . فروسو ترك جنيف هائما على وجهه ، وعمره ست عشرة سنة، وعاد إليها كاتبا قديرا ، وأديبا عالميا ، وعمره اثنتان وأربعون سنة ، فاستقبله أهل

---

(١) Madame de Ipinay

جنيف استقبالا حارا ، استقبال الوطن المقدر للابن الفائز المنتصر ، ومكث فيها أربعة أشهر ، ثم عاد إلى باريس ليطبع رسالته فى « أصول عدم المساواة بين النوع الإنسانى » . ولكى يتجنب الرقابة الشديدة على المطبوعات إذ ذاك فى فرنسا طبع هذه الرسالة فى هولندة ، وأهداها إلى جمهورية جنيف . وقد صار روسو فى ذلك الحين يكره باريس ، يكره أن يكون قريبا من « ڤولتير » عدوه اللدود ، وصديقه القديم . يكره باريس لكثرة أعدائه والحاسدين له فيها ، والمتآمرين عليه . وربما كان هذا هو السبب فى تفكيره أن يعيش فى الريف ، بعيدا عن المدنية ، وما فيها من مظاهر اجتماعية ، ثم أقام مع « مدام دى إبناى » فى بلدة « شِفْرِيت » .

وذات يوم سار وهو عائد إلى جنيف مع مدام « دى إبناى » « وتريز » حتى وصلوا جميعا إلى غابة « مُونْتمُورِنسى[1] » فرأوا فى الغابة منزلا منعزلا فى موقع جميل، يحيط به كثير من الأشجار ، ولكنه يحتاج إلى إصلاح ، فصاح روسو : « ما أجمل السكنى هنا يا سيدتى ! هذا خير ملجأ لى » . ولم يقل أكثر من هذا . فعند عودته من جنيف إلى بلدة « شِفْرِيت » عاد إلى غابة « مُونْتمُورِنسى » ومر بالمنزل الذى رآه من قبل ، فعجب كل العجب حينما رأى أن ذلك الكوخ الخرب صار بيتا جميلا، مؤثثا بأثاث يدل على الذوق الجميل ، وقابل « مدام دى إبناى » به ، فقالت له : «هذا ملجؤك الذى اخترته ، وإن الصداقة هى التى تقدمه هدية لك» . فتأثر روسو كل التأثر ، لهذا العطف الشديد عليه ، وهذه المروءة النادرة ، وتساقطت دموعه على يدها ، وقبل الهدية بعد تردد ، لأنه يحب الحياة فى الريف الهادئ ؛ فقد سئم المدن ، وملّ حجر الاستقبال ، وحياة المظاهر . سئم الاحتفالات فى باريس ، والمجتمعات

---

(١) Montmorency

الصاخبة . ولا غرابة ؛ فهو الآن يود أن يعيش فى هدوء وسكون ، يود أن يعيش فى الريف حيث يجد الهدوء الذى يعشقه ، والطبيعة التى يولع بها ؛ ليكتب هنا مايشاء، ويؤدى رسالته العلمية والأدبية خير أداء .

(٤) كتاب العقد الاجتماعى[١]

كان الكتاب والأدباء والمفكرون فى فرنسا لا يكتبون إلا بحذر قبل روسو، خوفا على أنفسهم من العسف والاضطهاد ، والظلم والاستبداد ، فكانت حرية الكتابة مفقودة ، وحرية الرأى تكاد تكون معدومة ؛ لشدة الرقابة على ما يكتب ومايؤلف ، وكانت الآراء التى تعد عادية وعادية جدا فى انجلترة فى القرن الثامن عشر تعد ثورية فى فرنسا ، وكانت الحكومة مختصة بالبحث فى حقوق الإنسان ، أما المفكرون فلم يكن هذا البحث من اختصاصهم ، وكان المصلحون من الأحرار فى آرائهم وأفكارهم يضطهدون كل الاضطهاد ، ويعرضون أنفسهم للسجن والتعذيب، والنفى والتشريد ، وخاصة إذا تعرضوا لآراء الكنيسة . ولم يجرؤ أحد على النقد الحر قبل الثورة الفرنسية إلا (روسو وڤولتير) ؛ بانهما كانا من عشاق الحرية ، والصراحة فى الرأى والقول ، فكتب روسو يدافع عن الفقراء ، ويصف شعور الشعب ، وينتصر للعامة ، تقوده عاطفته القوية ، ووجدانه الحى ، وقلبه الحساس للدفاع عن الإنسانية ، والرجوع إلى الطبيعة ؛ للوصول إلى الحرية ، والعدالة الاجتماعية .

وكتب (ڤولتير) وقائده عقله الراجح ، وذكاؤه النادر ، واطلاعه الواسع ، وعلمه الغزير يعلى من شأن العقل ، والمواهب العقلية ، مطالبا بنقل السيطرة من رجال

---

(١) The Social Contract

الكنيسة إلى رجال العقل والتفكير، وهم الأمراء والأشراف. ولا عجب؛ فقد كان (ڤولتير) من طبقة الأشراف المتسامحين فى دينهم، الأحرار فى تفكيرهم، الذين يعتقدون أن العقل والتفكير من المواهب التى اختص الله بها الأغنياء دون الفقراء، وأن الأشراف خلقوا ليحكموا، والفقراء خلقوا ليعملوا بأيديهم ويُحْكَموا؛ لهذا كان (ڤولتير) لا يعطف على الفقراء، فى حين كان روسو يتألم لهم، ويدافع عن حقوقهم بجنانه وبنانه، وقلبه ولسانه. وقد قيل: إن السر فى عظمة (ڤولتير) أنه كان ينادى بما يفكر فيه الشعب، والسر فى عظمة روسو أنه كان ينادى بما يشعر به الشعب.

ولشدة الرقابة على الكتابة كان الكتاب يكتبون خفية، ولا يذكرون أسماءهم، ويضطرون أحيانا إلى طبع رسائلهم وكتبهم فى هولندة، ثم يحاولون إرسالها إلى فرنسا سرًّا، محتالين بكثير من الحيل؛ كى لا يعرض المؤلف للسجن فى (الباستيل[1])، وتعرض الكتب للإحراق، فكانت ترسل فى صناديق كأنها بضاعة أو أغذية، مرسلة من هولندة إلى فرنسا؛ مخافة مصادرتها وإحراقها إذا عثرت عليها السلطة الحاكمة. وبمضى الوقت بدأ الناس يفكرون فى الحرية، وينادون بها، ويذمون الضغط والعبودية، وثاروا ضد الاستبداد وتقييد الحرية، وأخذوا يتشجعون غير مكترثين لما ينتظرهم من عقاب أو اضطهاد. وفى ذلك قال المارشال «دى ريشليو[2]» للملك لويس السادس عشر: «فى أيام لويس الرابع عشر لم يجرؤ أحد أن يتكلم، وفى عصر لويس الخامس عشر كان الناس يتهامسون، وفى عصر جلالتكم قد رفعوا أصواتهم».

---

(١) The Bastille

(٢) Marshal de Richelieu

وكان الكتاب فى دائرة المعارف ينشرون آراءهم الدينية والخلقية ، والاجتماعية والسياسية بحذق ومهارة ، وحيطة وحذر .

وفى الوقت الذى كتب فيه روسو كتابه النفيس « العقد الاجتماعى » كان من الخطر أن يرفع الرجل صوته ، ولكن روسو لم يبال ، ورفع صوته عاليا فى فرنسا ، على مسمع ومرأى من الحكومة الفرنسية ، وذكر كل ما فى نفسه بكل شجاعة وصراحة ، بروح قوى ، وأسلوب ثائر ، ولغة مؤثرة ، بشكل ليس له مثيل ، فى عصر كانت السلطة فيه للأشراف والأمراء ، وكانوا ينظرون فيه إلى العامة والجمهور نظرة كلها استهانة واستخفاف واحتقار .

كتب روسو فى حقوق الشعب ، وحقوق الفقراء ، وخالف الرأى السائد فى عصره القائل : « إذا كان الحكام كالذئاب وجب أن يكون المسيحيون كالغنم[1] » .

كتب روسو ضد هذا ، ونادى بالعدالة ، وثار ضد هؤلاء الذئاب ، مدافعا عن حقوق الإنسانية ، وعن حقوق المسيحيين الفقراء ، طالبا معاملتهم كما يعامل الإنسان ، لا كما تعامل الأغنام . وقد تأثر روسو فى آرائه الاجتماعية بآراء (جون لُوك[2] ، وسِدْنِي)[3] من كبار فلاسفة الإنجليز ، وبآراء أفلاطون من فلاسفة اليونان القدماء ، فجهر وفكر فى حقوق الشعب والجمهور ، حقوق الكثرة على القلة ، والعامة على الخاصة ، وفكر فى الناحية الإنسانية ، ونادى بقلب النظام الاستبدادى الفرنسى رأسا على عقب . فروسو تأثر بما كان يحدث فى عصره فى انجلترا ، وما كان يحدث فى الماضى البعيد فى عصر أفلاطون وأرسطو وسقراط .

---

(١) Even if the rulers were « as wolves » the Christians « should be as sheep. »

(٢) John Locke (٣) Sydney

فكتاب (العقد الاجتماعى) وجد فيه عشاق الحرية الكتاب المقدس للحرية[١]، وهو فى نظر فرنسا الحرة مثل (مَجْنَا كارْتَا[٢]) فى نظر انجلترا المستميتة فى سبيل الحرية. ومع هذا فليس أسلوب كتاب (العقد الاجتماعى) قويا مؤثرا كأسلوب إميل . ومن الجمل التى بدأ بها العقد الاجتماعى تلك الجملة الثورية التى قالها وهى « خلق الإنسان حرا وهو مستعبد فى كل مكان » .

فالإنسان فى القرون الوسطى كان مستعبدا ، يعامل الفقير معاملة العبد ، ويقاسى كثيرا من البؤس والشقاء ، والعرى والجوع ، فكيف نبيح هذه العبودية ؟ وكيف نبرر أن يحرم الإنسان الحرية ؟ وكيف يستمر هذا العسف والاضطهاد ، والظلم والاستعباد؟ وإننا نقول: كيف خلق الإنسان حرا ، وهو إذا ولد وترك وحده فى عزلة قضى نحبه ، وإذا كان فى أسرة تأثر بالنظام الاجتماعى والحياة الاجتماعية لتلك الأسرة ، وأعطى من الحرية ما تسمح به أحواله ؟ ولم يولد الإنسان حرا حتى فى أيام اليونان والرومان، ولم يكن حرا فى أيام بنى إسرائيل ؛ فقد كان لسيدنا إبرهيم كل الحق فى أن يضحى بابنه ، وكان الرومان القدماء يسمحون للآباء ببيع الأبناء .

ومن أقوال روسو : « إن الجوع انتحار ، ومن القتل أن يرى الإنسان أطفاله يموتون جوعا بجريمة الأغنياء . إن إرادة الشعب صائبة دائما » .

وقد تكلم روسو كثيرا عن العدالة ومبادئها ، ووصف الحكومة الصالحة بأنها تلك التى تفكر فى إرادة الشعب ، وما يشعر به الشعب ، وتعمل لسعادة المجتمع ، والنهوض بالمجتمع ، وزيادته عددا وقوة ، ورخاء وسعة . وقد بيّن روسو أن السعادة

---

(١) The gospel of liberty (٢) Magna Charta

الاجتماعية لا يمكن الوصول إليها إلا بجعل الثروة بين أكبر عدد من أفراد الشعب، وقد أخذ بهذا الرأى واشنطون محرر أمريكا .

نادى روسو فى كتابه « العقد الاجتماعى » بالحرية والمساواة ، ولم يقصد بالمساواة أن يكون جميع أفراد الشعب متساوين فى الثروة والقوة ، أو فى درجة متساوية من الغنى ، ولكنه أراد بالمساواة ألا يصل الغنى إلى منتهى الثروة ، ولا يصل الفقير إلى منتهى الفقر ؛ حتى لا يستطيع الغنى أن يشترى الفقير بماله ، ولا يضطر الفقير إلى أن يبيع نفسه ؛ لشدة حاجته وفقره .

فروسو كتب ضد الرق والعبودية ؛ لأن العبودية تنافى الإنسانية ، وطالب بالمساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان فى الحقوق . وبهذه المبادئ تنادى الشعوب الحديثة ، وبهذه الحقوق تطالب الأمم الحية اليوم . وقد كان (لأبراهام لنكولن) كل الفضل فى تحرير العبيد بأمريكا ، لأن العبودية والإنسانية ضدان لا يجتمعان .

بهذه المبادئ دافع روسو عن حقوق الإنسان ، وأسسها على طبيعة الأشياء ، وبين نظام الحكم ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبيَّن أن الحكومة هى نتيجة عقد اتفاق بين الحاكم والمحكوم يوجب على الأول أن يفكر فى مصلحة الثانى وفى حقوقه ، ويطالب هذا بالقيام بالواجب نحو ذاك . وإننا من القائلين بأن الحكومة يجب أن تعمل لصالح المحكومين ، لصالح الشعب والمجتمع ، وتفكر فى المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة ، وتعطى كل ذى حق حقه ، وتنتظر من كل فرد أن يقوم بواجبه، وأن يصل إلى ماله من حقوق ؛ بحيث لا يكون هناك فرق بين الغنى والفقير فى المعاملة، ولا بين القريب والبعيد فيما له من حق أو ما عليه من واجب . وهذا ما نادى به كبار

المصلحين من السياسيين وعلماء الاجتماع فى القرن العشرين، وننادى به اليوم، من أن الحكومة هى الأمة ، والأمة هى الحكومة . يجب أن تكون الحكومة من الشعب، وتعمل للشعب ، وتفكر فى صالح الشعب ، والنهوض به علميا وصحيا ، وخلقيا واجتماعيا ، وزراعيا وتجاريا ، وصناعيا وفنيا ، وحربيا وبحريا ؛ بحيث تفكر فى كل ناحية من نواحى الإصلاح الذى يتطلبه الشعب ، فتعمل لإصلاح ما فيه من عيوب ، وتقويم ما به من اعوجاج ؛ للسير به فى الطريق المستقيم ؛ طريق الكمال أو مايقرب من الكمال فى جميع مرافق الحياة .

وحينما كتب روسو « العقد الاجتماعى » كان كتابه هذا إنجيلا للثورة الفرنسية بعد وفاته . ففى سنة ١٧٨٨ م كان (مارات[1]) يقرأ العقد الاجتماعى فى شوارع باريس ، فيتجمع حوله كثير من المستمعين والمتظاهرين والثائرين ، ويهتفون له . وقد اقتبس منه خطباء الجماهير والثورات كثيرا فى كل مجتمع من المجتمعات ، واحتفال من الاحتفالات . ووجد فيه الشبان من المحامين مثلهم الأعلى لنظام الحكم، وقرأه الجنود فى معسكراتهم ، وعده الصناع والعمال والفقراء المدافع عن حقوقهم ، المنظم لأحوالهم ، المطالب بحقوقهم . وقد أعجب به رجال الفن والصحفيون ورجال الكنيسة كل الإعجاب ؛ لما فيه من منطق قوى ، وعاطفة ملتهبة ، وقضايا صائبة . أعجب به الخاصة والعامة ، أعجب به النبلاء والفقراء ، أعجب به الأمراء والأشراف؛ لعباراته العذبة ، وحججه القوية ، مع أنه كان ضدهم ، ومع أنهم كانوا فى أنفسهم يحتقرون الطبقة العامة ؛ طبقة الدهماء ، وينظرون إلى الفقراء نظرة السادة إلى العبيد،

---

(١) Marat : هو جن بول مارات (Jean Paul Marat) من أكبر رجال الثورة الفرنسية، ولد فى ٢٤ من مايو سنة ١٧٤٣ ، وقتل فى ١٣ من يولية سنة ١٧٩٣م .

نظرة الحاكم المستبد إلى المحكوم الذليل . وكانوا ينظرون إلى تلك المبادئ التى نادى بها روسو من الإخاء والحرية والمساواة نظرة كلها تشكك وتردد . ولم يذهب نابليون بعيدا حينما قال : « لو لم يكن روسو ما حدثت الثورة الفرنسية » . فروسو قد بذر بذور الثورة فيما كتب ، وشاركه فى العمل لها عدوه ڤولتير ، وكثير غيرهما من الكتاب والفلاسفة ، والمصلحين ، وقادة الرأى والعمل . وقد اعتقد هؤلاء المصلحون من قادة الرأى أن الشبان هم الذين سيعيشون ويرون ما يحدث من إصلاحات بعد الثورة الفرنسية .

استمر الشقاء سنة بعد أخرى ، وزادت المظالم حتى طفا الكيل ، ونفد الصبر ، وأخذ الفقراء يثورون لما لحقهم من عسف وظلم ، فثاروا فى المقاطعات ، وكثرت الاحتجاجات فى كثير من الجهات ، واشتدت مظاهرات المراة والجياع والمظلومين من الفقراء ، فبذور الثورة الفرنسية قد بذرت فى الجو قبل الثورة بعشرات السنين .

ولقد كتب كثير من القادة كتبا ورسائل عن النظام الطبيعى ، وحقوق الإنسان ، من الإخاء والحرية والمساواة ، ولكن لم يستطع أحد أن يكتب بقلب كقلب روسو ، أو روح كروحه ، أو أسلوب كأسلوبه . لم يستطع أحد أن يصور شعور الشعب كما صوره روسو بقلم من النار . ولاعجب ؛ فهو ابن الشعب ، وابن الطبيعة ، وابن العاطفة ، عاش طول حياته بين الشعب ، وشعر بما يقاسيه من ظلم وقسوة واضطهاد . وقد كتب ڤولتير فيما يفكر فيه الشعب ، ورجع إلى العقل ، وكتب فى تحرير الشعب من العادات والتقاليد الدينية ، ولكنه لم يصل إلى ماوصل إليه روسو فى إثارة الشعب . ولاغرابة ؛ فقد كان من طبقة الأشراف ؛ تلك الطبقة التى تحتقر العامة والدهماء ، وهو القائل :

« إنهم أغبياء متوحشون ، إنهم ثيران لا يحتاجون إلا إلى منخس ينخسون به ، ونير يوضع على رقابهم ، وحشيش يأكلونه » .

فهل تعجب إذا قدس العامة روسو ، واتخذوا مبادئه عقيدة لهم ، وعدوه منقذا يفكر فى إنقاذهم ، وأحبوه محبة تقرب من العبادة ؟ وقد كثر المعجبون به من طبقات الأشراف .

بدأ روسو يفكر فيما يمكن تنفيذه من المبادى والإصلاحات ، وقد صرح بأن القوانين يجب أن تكون ملائمة للشعب والبيئة والعصر ، وإلا أضرت الشعب ، وكان مآلها الإخفاق . وإذا أردنا الإصلاح وجب أن نفكر فى البيئة ، وما يلائم تلك البيئة والعصر ، حتى تنجح هذه الإصلاحات ، وتؤتى ثمارها ، ولا تكون نتيجتها الإخفاق ؛ كالإصلاحات الفجة التى حاولها بطرس الأكبر[1] فى روسيا ، فليس المهم وضع القوانين ، ولكن المهم العمل بها وتنفيذها . ليس المهم التكلم فى الإصلاح ، ولكن المهم الإصلاح بالفعل .

وقد قال (جورج ساند[2]) : إن كتاب « العقد الاجتماعى » كان من أسباب الثورة الفرنسية ، وانتفع قواد الثورة بما فيه من مبادئ وآراء . وقديماً كان يظن أن الحكومة كل شىء ، وأن الفرد ليس بشىء . وقد كان لروسو كل الفضل فى أن تفكر الحكومات (الديمقراطية) فى كل فرد من أفراد المجتمع ، وفى المساواة بين الأفراد فى الحقوق والواجبات ، وفى الحكم على من يعارض الإرادة العامة للشعب من الأفراد . وبهذه المبادئ التى نادى بها روسو وصل الإنسان إلى حقوقه وهى « الحرية والمساواة والإخاء ـ أو الموت » .

---

(١) Peter the Great in Russia

(٢) George Sand

وليس معنى الحرية فى نظرنا أن نتعدى على حقوق أى إنسان ؛ بل معناها أن نحافظ على حقوق كل إنسان .

ولم تؤثر مبادئ روسو فى فرنسا وحدها ، بل كان لها أكبر الأثر فى الولايات المتحدة بأمريكا وغيرها من الأمم (الديمقراطية) ؛ فقد أعجب بها (توماس جيفرسون[١]) ثالث رؤساء الولايات المتحدة بأمريكا بعد تحريرها . وبهذا نادى بأن الناس جميعا خلقوا متساوين ، وقد وهب الله لهم حقوقا لا تباع ولا تشرى ، تلك الحقوق هى الحياة والحرية والسعادة . وقد اقتبس هذه الآراء من روسو .

وحينما قرأ (فردريك) الأكبر[٢] كتاب (دى هُلْبَاك): (نظام الطبيعة)[٣] قال: « لو كان لدىَّ مقاطعة أريد عقابها لأعطيتها هؤلاء الفلاسفة ليحكموها ؛ ومعنى هذا أن (فردريك) الأكبر لم يرق فى نظره مبادئ روسو ، ولا آراء (دى هُلْبَاك) ، ولا غيرهما من القادة والمصلحين الذين نادوا بالإخاء والحرية والمساواة بين أفراد الشعب ، وفكروا فى حقوق الإنسان ، ودافعوا عن الإنسان .

وقد اتبع الفرنسيون إرشادات روسو ، ونفذوا مبادئه التى ذكرها فى العقد الاجتماعى. ولكى تنقل شعبا من العبودية إلى الحرية ، ومن (الأرستقراطية) إلى (الديمقراطية) يجب أن تكوِّن هذا الشعب من جديد ، وتحييه من جديد ، إذا أردت أن تجعله شعبا حرا كريما ، يقدر الحرية ، ويستميت فى سبيلها ، ويطالب بها ، ويعمل للوصول إليها ؛ بأن تزيل أسباب التأخر ، وتصلح ما به من عيوب ، وتقوِّم ما فيه من اعوجاج ،

---

(١) Thomas Jefferson : أديب أمريكى ، وعالم سياسى ، وكان ثالث رؤساء الولايات المتحدة بأمريكا .

(٢) Frederich the Great

(٣) D' Holbach 's «System of Nature »

وتستأصل ما به من رذائل ، وتغير نظمه وعاداته ، وتعوده تحمل المشاق والصعاب ، وقلة القول ، وكثرة العمل ، وتربيه تربيةوطنية ، تربيةقومية تعاونية ، تربية كاملة، حتى يصير شعبا قوى الجسم ، منظم التفكير ، مهذب الخلق ، قوىّ الإرادة والشخصية، حىّ الوجدان ، فصيح اللسان ، يستطيع أن يعمل بيده ، ويفكر بعقله ، ويشعر بقلبه .

(٥) اعترافاته[1]

دوّن روسو قصة حياته الخاصة فى اعترافاته ، وقد ألف الجزء الأول منها سنة ١٧٦٦ م، واستمر فى الكتابة حتى انتهى من الجزء الثانى فى سنة ١٧٦٨ م . وقبل أن يكتب جمع ما لديه من مذكرات ورسائل وأوراق ليستعين بها على تذكر مامر به فى حياته. وقد وضع لنفسه خطة هى أن يظهر للعالم الطبيعة الحقة للإنسان ، وكان مثال المؤرخ الأمين ، والقاضى العادل الذى يبحث وراء الحقيقة . ولم يخف فى هذه الاعترافات خطيئة من الخطايا، ولم يزد حسنة من الحسنات . كتب هذه الاعترافات وهو يعتقد أن العالم كله لا يستحق شيئا ، فى وقت كانت تعد كتابة الشخص تاريخ حياته شيئا خياليا ، ولكن فى نظر روسو كان تاريخ الحياة شيئا حقيقيا يمثل حياته كما هى ، ويصورها كما كانت . وقد كتب كثير من المؤرخين المهذبين شيئا عن حياتهم الخارجية ، وصوروها بصور زخرفية ، ولم يذكروا شيئا عن حياتهم الداخلية . أما روسو فقد وصل إلى أعماق حياته الداخلية والخارجية، ولم يخف شيئا على التاريخ،

---

(١) His Confessions

مهما يكن ذلك الشيء مكروها أو منبوذا ، ولم يضف شيئا يكسب به شعور غيره أو إعجابه، بل تمسك بالحقيقة ، ووقف بجانبها ، ورجع بذاكرته إلى أيامه الأولى ، ودوّن ما تذكر من تاريخ حياته بكل صراحة وإخلاص ، وذكر ما قام به من فضيلة ، وما ارتكبه من رذيلة . وحاسبه ضميره الحي على كل ما ذكر ، وصور نفسه كما صورته الطبيعة ، وكما خلقه الله .

كتب روسو كثيرا من هذه الاعترافات وهو في انجلترة ؛ وهو شديد الاضطراب، كثير الهواجس ، لا يثق بأحد ، بل يسيء الظن بكل إنسان ، حتى الخدم والجيران ؛ فقد كان يعتقد أن الناس جميعا أعداء له ، وأنهم جواسيس لدافيد هيوم ، يتآمرون عليه ، ويراقبونه في حركاته وسكناته ليلا ونهارا ، شأن الرجل المريض النفس الذي عبس له الدهر ، وتنكر ، ولازمه البؤس والشقاء طول حياته ؛ فاستولت عليه الهواجس ولازمته الهموم .

ولم يدون أحد تاريخ حياته بكل شجاعة وصراحة كما فعل روسو في اعترافاته . وفيها يقول : « لقد بدأت مشروعا ليس له مثيل من قبل ، ولن يكون له مثيل فيما بعد. فأنا أريد أن أظهر للعالم رجلا مثل الطبيعة الحقة في جميع مظاهرها » . وهذا الرجل هو روسو نفسه ، هو روسو الذي يشعر بنفسه وقلبه ، ويعرف غيره من الناس . وقد اعتقد أنه لم يخلق كأي رجل آخر في الوجود ، وقال : « إذا لم أكن أنا أحسن فأنا على الأقل مختلف عن غيري » .

وقد وضع نفسه في كتابه كما يوضع المتهم أمام القضاء ، وقال بصوت مرتفع : «انظروا ماذا فعلت، وفيم فكرت. وكيف كنت ؟ لقد ذكرت كل حسنة وسيئة ،

ولم أخف خطيئة ، ولم أزد فضيلة ، بل أظهرت نفسى محتقرا قبيحا حينما كنت محتقرا وقبيحا ، وكريما عظيما حينما كنت كذلك . أظهرت نفسى كما خلقها الله» . وقد جمع حوله كثيرا من أصدقائه ليسمعوا اعترافاته ، وليبكوا على آلامه ، وليخجلوا لشقائه . وبهذا الإخلاص النادر قص روسو على القارئ بشكل لا نظير له حسناته وسيئاته ، وفضائله ورذائله ، وقصصه الغرامية ، وانفعالاته وعواطفه . وفى استطاعة روسو أن يفخر حقا بالأمانة التى أظهرها أمام العالم ؛ الأمانة فى ذكر الحقيقة عارية مجردة ، لا زخرفة فيها ولا كذب . وقص علينا ما حدث له حتى الحوادث التى لا يذكرها الإنسان لأقرب صديق من الأصدقاء . فهو قد ذكر الحقيقة كما هى ، وتكلم عن حياته المنزلية ، والريفية والمدنية ، حياته الطبيعية ، حياته المشردة ، بأسلوب عذب جميل ، ولغة واضحة مؤثرة . ووصف الحياة الاجتماعية فى عصره بمهارة نادرة ، ووصف المناظر الريفية وصفا دقيقا جميلا ، يدل على قوة فى التذكر ، وقوة فى التخيل ، وقدرة على الكتابة .

وقد أساء الظن بكثير من أصدقائه وصديقاته ، واتهم بعضهم بسرقة أوراقه ، وبعضهن بالكذب والغيرة ، ولم ينج من عدائه إلا القليل . وقد مسّ شعور الكثيرين منهم .

ومهما يكن من حبه لنفسه وقلة ثقته بغيره فلا يمكننا أن ننكر مشاركته المظلومين فى شعورهم ، وإحسانه إلى الفقراء من جيرانه ، مع شدة حاجته وفقره ، وشجاعته فى ذكر آرائه ، ومناداته بها فى وقت اشتدت فيه الرقابة على الكتابة . ولا يمكننا

أن ننسى اعتزازه بنفسه ، وعدم خضوعه ومجاملته للأشراف من الأغنيـاء ، مع إعجابهم به وحاجته إليهم .

ولشرود خياله وشـدة إحساسه تملـكته الهواجس من كل جانب ، واضطرب عقـله ، وزادت آلامه وأحزانه ، وترك القراءة والـكتابة إلا كتابة الرسائل، لتعبه وإجهاده ، وقد صرح فى أواخر حياته بأن إمساك القلم لـكتابة رسالة من الرسائل مثل رفع حمل من الحديد .

وفى سنة ١٧٧٠ م بدأ يقرأ شيئا من اعترافاته فى منزل أحد أصدقائه ، فاحتجت صديقته (مدام دى إبناى[1]) لدى الشُّرَط ، طالبة وقف القراءة؛ خوفا من أن يُذكر شىء يمسها . فوقفت القراءة . واحتفظ روسو باعـترافاته لنفسه ، وأوصى ألا تنشر إلا بعد وفاته . وقد نشرت بما فيهـا من اتهامات بين سنة ١٧٨١ ، ١٧٨٨ م ، فاستحسنها من استحسن من الأصدقاء ، واستقبحها من استقبح من الأعداء .

وفى اعترافات روسو كثير من الحقائق المحزنة ، والمخازى المؤلمة ، والمظالم الفادحة. فى أسلوبها وضوح وجمال ، وعظمة وصراحة ، وقوة وروعة . فيها أمور تتبرأ منهـا الإنسانية ، وتنفر منها العدالة ، أثارت ضده الأغنياء ورجال الدين ؛ فقد ذكر كل ماعرفه عن هؤلاء وأولئك . ولم يخف شيئا مما عرف ، من أشياء تتمثل فيها الرذيلة، ويبدو فيها العسف والجور . كتب فيها عن نفسه وعن غيره ، عن الأحياء والأموات، بكل شجاعة وإخلاص .

---

(١) Madame d' Epinay

وقد ذكر فى اعترافاته بعد أن هرب من أستاذه سنة ١٧٢٨م. يقول: «كنت أتمنى أن أستمر على مذهبى الدينى[1] فى بلدى وموطنى، بين أسرتى وأصدقائى. كنت أتمنى حياة سلمية هادئة، أعمل عملا يلائم ذوقى، وأعيش بين جماعة يتصل بها قلبى. كنت أتمنى أن أكون مسيحيا طاهرا، ووطنيا مخلصا، وأبا بارا، وصديقا وفيا، وعاملاً ماهرا. كنت أتمنى أن أكون رجلا كاملا فى كل ناحية من النواحى. كنت أتمنى أن أكون سعيدا فى كل أوقاتى وأحوالى، أحيا حياة هادئة، وأموت ميتة هادئة بين وطنى وأسرتى».

---

(١) كان بروتستانتيا فى مذهبه.

سنواته الأخيرة

قضى روسو السنوات الأخيرة من حياته فقيرا معذبا ، مضطربا مشردا ، كما قضاها فى أيامه الخالية ، وطفق يتنقل من بلدة إلى أخرى ، ومن مكان إلى آخر متسترا ؛ فقد هرب من فرنسا إلى انجلترة بعد كتابة إميل خوفا من الاعتقال ، وأعجب به كثير من الإنجليز ، وعين له الملك «جورج» الثالث معاشا قدره مائة جنيه فى السنة ؛ ليستعين به على الحياة ، ولكنه لم يتسلم هذا المعاش إلا مرة واحدة ، ثم تركه ، فاستولى على المتأخر له أحد أصدقائه ، فتألم منه روسو كل الألم ، ومزق قرار المعاش، ولم ينتفع به بعد ذلك ؛ لأنه كان يعتقد أن (داڤيد هيوم[1]) هو الذى سعى فى تقرير هذا المعاش له ، وكان روسو يعتقد إن خطأ أو صوابا أنه عدو له .

أخذ روسو و « تريز» يهيمان على وجهيهما لعلهما يجدان شيئا من راحة البدن أو راحة العقل ، وقد رضيا بما قضى الله عليهما ، وأخذا يتنقلان من جهة إلى أخرى لا يعرفان لهما مقرا ، ولا يجدان لهما مأوى ، وليس معهما إلا قليل من المتاع . وحينما كانا فى بلدة « بُرْجُون[2] » أقام روسو احتفالا صغيرا فى فندق متواضع مع « تريز» تخيل أنه احتفال بزواجهما ، فجلس معها على مائدة ، ومعهما ضيفان من خيار الناس ، وأعلن أمامهما أنها زوجته .

وفى سنة ١٧٦٩ م ذهبا إلى بلدة « مُونْكِين[3] » واستأجرا بيتا من إحدى السيدات مكثا فيه ثمانية عشر شهرا ، ففى الصيف كان يقضى وقته فى الغابات وفى الجبال،

---

(١) David Hume (٢) Bourgon (٣) Monquin

ويتمتع بالهواء الجميل ، والطبيعة الساحرة ، فينسى أوهامه وهواجسه ، ويثق أن أعداءه لا يستطيعون أن يجدوه فى هذا المكان ، وأخذ يشغل نفسه بدراسة علم النبات، والبحث عن كل نبات جديد ، والتفكير فى كل نبات نادر ، ويرقب نموه ، ويتعهده بالعناية ، وأخذ يربى الطيور فى حجرته ويستأنسها .

وحينما عاد إلى باريس بعد سفره إلى انجلترة عاد خفية متنكرا فى يوليه سنة ١٧٧٠م. خوفا من أن يعرف فيعتقل ، ومكث بها سبع سنوات لا يثق فيها بأحد ، ولا يحب أن يسير فى شوارع باريس ، بل يسير فى الضواحى ؛ ليتمتع بالطبيعة وجمالها ، والطيور وتغريدها ، والشمس وغروبها . وقد ابتعدت مؤامرات العالم عن ذاكرة هذا الشيخ الهرم بعض الوقت ، وقد سئمته زوجه وأهملته فى شيخوخته ؛ فقد كان يمكث أياما لا يكلمها كلمة واحدة ؛ إذ كان فى شغل عنها لكسب عيشه من عرق جبينه واشتغاله برسائله ، وتفكيره فى أعدائه وحساده . ويجب أن نأسف لتلك المرأة المسكينة فى حياتها مع رجل لم تفهمه فى أيام نجاحه ، ولا فى أيام شقائه . وقد كتب لها روسو رسالة فيها كثير من العاطفة والشعور يدافع فيها عن إهماله لها ، وتدل على حياة بائسة شقية فى سنواته الأخيرة . ففى أشهر الشتاء سنة ١٧٧٠م . أحاط الثلج بكل مكان ، واخترق الحجرة التى يقيم فيها حتى كانت أصابعه ترتعش وهو جالس بالقرب من النار، وفى هذا الوقت من البؤس والشقاء ألف الأجزاء الأخيرة من اعترافاته ، واعتقد أنه يرى الإنسان دائما كاذبا خائنا ، شريرا متظاهرا ، متسترا حاقدا ، يظن بالناس الظنون. تمنى روسو أن يودع هذه الحياة ، وهذه المتاعب ، وتاق إلى الوقت الذى يفارق فيه ذلك البؤس ليرى حياة أسعد من هذه الحياة .

كان روسو فى سنواته الأخيرة يكسب عيشه بنسخ الموسيقا ، وكتابة خمس صفحات كل يوم ؛ كى يجد القوت الضرورى للحياة ، فكان يستيقظ صيفا فى الساعة الخامسة صباحا ، ويشتغل بنسخ الموسيقا حتى منتصف الساعة الثامنة ، ثم يتناول قليلا من الطعام ، ويتعهد ما لديه من نبات ، ثم يرجع ليعمل حتى وقت الغداء ، فيتغذى فى الساعة الثانية عشرة والنصف ، ثم يخرج إلى المقهى ليقضى بعض الوقت ، ويسير سيره العادى اليومى وحيدا ، ثم يعود ليلا ويذهب إلى الفراش فى منتصف الساعة العاشرة .

وبنسخ الموسيقا — وهو عمل آلىّ — كان يكسب عيشه ، ثم يرجع إلى عمله العقلى . وكان يسكن فى ذلك الوقت وهو فى باريس فى الطبقة الخامسة من فندق فى شارع (بلاتْرِيرْ[1]) يزوره كثير من المعجبين به فى كل وقت ممكن ، حتى سئم الزائرين ، ورفض أن يقابل أحدا إلا من كان له عمل معه . وزوجه الآن مولعة بالتكلم عن زوجها (جان جاك) للزائرين ، وتشتغل بالتطريز فى وقت تأتى فيه العصافير المستأنسة لتلقط الفتات من النوافذ المفتوحة . وروسو لابس معطفه ، وعلى رأسه قلنسوة بيضاء وهو ينسخ الموسيقا . وكان فى حجرته عصفوران يفتح لهما إذا أرادا الخروج أو العودة ، فكان لهما كالحارس .

وكان روسو مع نفوره من المجتمع وحبه للعزلة يحب أحيانا أن يذهب إلى المجتمعات أو المقاهى ؛ للبحث والمناقشة فى الموسيقا وغيرها مع جلوك وجْرِ يتْرِى[2] . وقد حدث ذات مرة أن (سانت بِيير[3]) وهو من أصدقائه المعجبين به أرسل إليه هَدية من بنّ

---

(١) Rue Platriere ويسمى الآن شارع جان جاك روسو .

(٢) Gluck and Gretry

(٣) St Pierre

جيد اشتراه من الخارج ، فكتب إليه روسو يعنفه ويؤنبه قائلا : (إن الصلة بيننا تكاد تكون محدودة ، وقد بدأت ترسل إلى هدايا ، فاختر لنفسك أن تأخذ البن ثانية ، أو لا يرى أحدنا الآخر بعد ذلك .) وقد اضطر صديقه أن يقبل منه هدية بدل هديته .

وذات يوم زاره (رُولْهِير) أحد معارفه ، فقابله روسو ببرود ، ولم يعره نظرا ، واستمر ينسخ الموسيقا وقال : « يجب أن أعيش من عمل يدى » ولكن الزائر لم يتحرك ولم يتكلم ، واستمر جالسا بالقرب من النار ، فنظر إليه روسو شزرا وقال : « م . دى رُولْهِير[1] ، لقد أتيت لمعرفة ماذا لدىّ فى القدر . حسنٌ جدًّا سأشبع رغبتك فى حب الاطلاع . إن فى القدر رطلين من اللحم ، وجزرا و بصلا ، وقليلا من القرنفل » . فخرج الزائر ممتعضا وخجلا ، ولم يتمتع بحديث روسو .

كان روسو إذا ترك باريس وذهب إلى الريف بدأ البشر على وجهه ، وأبرقت عيناه ، وقد قال مرة لزوجته : « إذا رأيتنى مريضاً ولا أمل فى شفائى فى يوم من الأيام فأْتِ بى محمولا إلى الغابة حتى تعود إلى صحتى » .

ولمرضه النفسى كان يعتقد أن كل إنسان يحتقره ، وأن الجواسيس ترقبه فى كل مكان ، وأن الجميع أعداء له . وقد وهب روسو خيالا نادرا ، وذكاء عظيما . وكان يفكر فى أمور نبيلة ، يسير وراء عواطفه ، يعيش فى الحاضر، وينسى الماضى، ولا يبالى بالمستقبل . كان سيئ الخط يشعر بالوحدة، ويحب العزلة ، ابتعد عنه أقرب الناس إليه من الأصدقاء ، ولم يشعر أحد بما شعر به من الظلم .

---

(١) M. de Rulhière

وفى السنتين الأخيرتين من حياته ترك نسخ الموسيقا لضعفه وعجزه وشيخوخته، فأصبح معدما ، لا يجد الغذاء الضرورى للحياة، ولا الوسائل الضرورية للعيش .

وفى مايو سنة ١٧٧٧م تمنى أن يقبل هو وزوجه فى مستشفى أو ملجأ ، وأن يكتفيا بأقل الملابس ، وأقل الطعام ، بشرط أن يشعرا بشىء من الراحة . واستعد روسو أن يسلم دخله السنوى وهو ألف وأربعمائة فرنك. وفى ذلك الوقت اشتد ضعفه ، وكثرت أوهامه ، وكان أحيانا يسير فى الغسق فى الضواحى ، ويتحدث مع من يقابله من الأطفال ويقبّلهم ، ويعطيهم شيئاً من الحلوى ، فألفه الأطفال وأحبوه . فإذا رآه أحد المارين خاف روسو أن يتبعه ، واختفى فى أى مكان . وحينما سمع بموت الملك لويس الخامس عشر فى سنة ١٧٧٤م قال: « آه يا إلهى ! ما أشد حزنى! فسئل: لماذا تحزن؟ فقال : لأنه كان يقاسمنى كراهية الشعب ، أما الآن فيجب أن أحتمل هذه الكراهية وحدى» .

مسكين روسو لم ير السعادة إلا فى الأيام التى نسى فيها أعداءه ، وهو فى السنتين الأخيرتين من حياته . كان لا يستطيع أن يسير كثيرا فى الريف ، ويتمتع بالطبيعة كما كان فى أيامه الخالية . فكان يجد لذة فى تنسيق ما لديه من نبات ، وتذكر أيامه الماضية وهو بين أحضان الطبيعة ، والمناظر الجميلة التى رآها ، والغابات التى شاهدها ، والجبال التى تسلقها ، والصخور التى وقف فوقها . كان يتذكر حياته الماضية ، وما مر به من بؤس وشقاء ، وما لحقه من فقر وظلم ، وألم وحزن ، فيأسف لما مر به فى حياته . كان إذا تذكر حاضره حزن ، واعتقد أن سكان باريس ضده ، وأنه لو ترك

منزله رموه بالحجارة ، وتخيل أن كل أوروبة تنظر إليه نظرتها إلى الرجل الغريب المتوحش الخطر .

وفى السنة الأخيرة من حياته وهى سنة ١٧٧٨ م قدم إليه أحد أصدقائه وهو (م . دى جيرَارْدِين[١]) كوخا جميلا بين أملاكه فى (إرْمُونِنْفِيل[٢]) وهى تبعد عشرين ميلا عن باريس . وفى الوقت الذى ترك فيه مسكنه الأخير فى باريس إلى الأبد فى شارع (بلاَتْرِير[٣]) ويدعى الآن شارع جان جاك روسو[٤] ـ كانت باريس محتفلة بعودة ڤولتير ، بعد أن نفى ستا وعشرين سنة ؛ فقد عاد إليها فى شيخوخته منتصرا ، واستقبله الشعب استقبالا عظيما ، وازدحمت الملاهى كل ليلة بمن يصفق لڤولتير إعجابا برواياته التى تمثل فى حضوره . وامتلأت الغرف والأبهاء فى قصره بالزائرين من النبلاء ، وملئت الشوارع بالعامة فى أثناء مروره احتفالا بعودته .

فى هذا الوقت قد نُسى جان جاك روسو كل النسيان فى كوخه المتواضع ، وفى فقره المدقع . مكث روسو السنة الأخيرة من حياته فى تلك البقعة الهادئة الجميلة فى كوخه ، بين الغابات والحدائق فى (إرْمُونِنْفِيل) ، وهو راض بتلك الحياة ، سعيد بها ، يسلى نفسه بذكرياته الماضية ، ويتعهد النبات ، ويستأنس بالطيور ، ويعلِّم ابن مضيفه ولم تمض بضعة أسابيع حتى عاد الشقاء إليه ثانية ؛ فقد عادت إليه أوهامه وهواجسه ، وتخيل أن أعداءه يحيطون به ، والجواسيس يرقبونه ، فرجا أحد أصدقائه أن ينقله إلى المستشفى ، أو إلى مكان آخر ، وحاول أن يهرب من هذا المكان سنة ١٧٧٨ م ،

---

(١) M. de Girardin (٢) Ermonenville (٣) Rue Platriere
(٤) Rue Jan Jacques Rousseau

فلم يستطع ؛ لأنه لم يكن لديه شيء من المال . ولا ندرى لماذا رفض أن يتسلم المعاش الذى قرره له جورج الثالث ملك انجلترا .

بدأ روسو حياته فقيراً، وانتهى منها فقيراً. بدأ حياته يتيما مشرداً ، وانتهى منها شقيًا معذباً . وقد قضت عليه الهواجس التى سيطرت على نفسه ، وتخيل أنه سجين ، وليس لديه وسيلة للنجاة .

وفاة روسو :

وفى اليوم الثانى من يونيه سنة ١٧٧٨م ترك الحياةوما فيها ؛ من متاعب وآلام ، وأحقاد وأحزان ، ومات بغتة ميتة مروعة . وقدقيل إنه انتحر ، وقال آخرون إنه سمّ نفسه ، وادعى كثير أنه أطلق على نفسه الرصاص . وقد شهد صديقه (م . دى جيرارْدِين) أن وفاته طبيعية ، وقرر الطبيب بعد الفحص أنه مات بسكتة قلبية ، ولكن موته الفجائى أثار كلام كثيرمن الناس حوله .

ومهما يكن من شيء ، فقد فارق هذه الحياة الشقية البائسة . وقبل وفاته قال لزوجته : « أتبكين لسعادتى ؟ أتبكين لتلك السعادة الأبدية التى لا يستطيع أحد أن يعكر صفوها ؟ إنى أموت هادئاً ؛ لأنى لم أفكر مطلقاً فى إيذاء أحد ، وإنى واثق برحمة الله » .

وقد استراح روسو من المظالم فى تلك الحياة ، ولا يستطيع الآن أحد أن يزعجه من أعدائه أو أصدقائه . وقد استراح قلبه الفياض ، وعقله المتقد ، وترك اسماً خالداً بين الأسماء الخالدة ، اسماً عظيماً بين عظماء الرجال ، وأثراً كبيراً بين الآثار العلمية والأدبية ، وقد دفن فى ليلة هادئة من ليالى الصيف المقمرة ؛ دفن بين أشجار

الحور فى (إرْمُونِنْفِيل)، تلك البقعة التى كان يحبها فى حياته . واستمر بها حتى أتى الثائرون بعد انتصارهم فى الثورة الفرنسية ، وحملوه إلى باريس ، ودفنوه حيث يدفن العظماء[١] ، بعد أن مكث ست عشرة سنة بين أحضان الطبيعة التى كان يحبها ويعشقها ؛ واحتفل بنقل رفاته احتفالاً عظيماً . احتفل به الشعب الذى وهب حياته له، والإنسانية التى دافع عنها ، والحرية التى نادى بها ، وردّت العامة الجميل لمن أعطاها الجميل ، واحتفلت به بعد وفاته الاحتفال الذى كان يليق به فى حياته ، ونقلته إلى المقبرة الوطنية لعظماء الرجال .

وقد ترك روسو من الآثار ما خلد اسمه وحياته بين علماء السياسة وعلماء الاجتماع، وعلماء الاقتصاد ، وقادة التربية .

ولا نبالغ إذا قلنا إن المربين فى القرن العشرين عالة عليه ، وقد انتفعوا بآرائه ومبادئه فى التربيـة وعلم النفس . وقد دافع عن الفقراء ، وما لحقهـم من ظلم واستعباد ، وطالب بالحرية والإخاء والمساواة . قال نابليون : « لولا روسو ما حدثت الثورة الفرنسية» . وقد وهب حياته للإنسانية ، وعاش فى سبيل الإنسانية ، واضطهد كثيراً من أجل آرائه ومبادئه ، وتحمل كثيراً فى سبيل تلك المبادئ . ولا عجب ؛ فالعظمة فى نظرنا يجب أن تشترى ، ولا بد لها من ثمن ، ولا ثمن لها إلا تحمل المتاعب والآلام .

ويعد كتابه العقـد الاجتماعى « إنجيل الحرية » ، وكتابه إميـل « إنجيل التربية » .

دار الكتب المصرية *
قسم التسجيل والتواصل

(١) فى مدفن البانثيون ؛ مدفن العظماء والأبطال : The Pantheon

(ا) أهم المراجع العربية

(١) جان جاك روسو ، حياته وكتبه ، تأليف الدكتور محمد حسين هيكل باشا.

(٢) جان جاك روسو ، وآراؤه فى التربية والتعليم ، تأليف محمد عطية الإبراشى.

(ب) أهم المراجع الإنجليزية

(1) Emile on Education, by Jean Jacques Rousseau.

(2) Rousseau, by John Morley.

(3) Rousseau, by Thomas Davidson.

(4) Rousseau, by Henry G. Graham .

(5) The Teacher 's Encyclopaedia, Vol. V11 P. 167 - 172

(6) The Confessins of Rousseau, by Jean Jacques Rousseau.

(7) The Social Contract, by Jean Jacques Rousseau.

obeikandi.com

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣ — ٥	مقدمة .
٧ — ١٢	طفولة روسو وحياته الأولى .
١٣ — ١٧	روسو فى غلومته وشبابه .
١٨ — ٢١	روسو فى عهد الشباب .
٢١ — ٢٥	روسو والسيدة الإيطالية .
٢٦ — ٣١	روسو بمدينة آنسى مع (مدام دى وارِنْز) .
٣١ — ٣٢	روسو يعلِّم الموسيقا .
٣٢ — ٣٤	سفره فى رحلة إلى باريس .
٣٤ — ٣٦	حالة الفقراء فى عصره .
٣٦ — ٣٨	روسو فى مدينة ليون .
٣٨ — ٣٩	روسو بمصلحة المساحة .
٣٩ — ٤٠	حياته فى شَارمِتْز مع (مدام دى وارِنْز) .
٤٠ — ٤٤	خطته اليومية ودراسته .
٤٤ — ٤٦	روسو فى باريس .
٤٧ — ٥٤	(تِريز لى ڤاسُور) شريكته فى حياته المقبلة .

obeikandl.com

الصفحة	الموضوع
٥٤ — ٥٥	رسالته إلى (تريز لى ڤاسور) شريكته فى حياته .
٥٧ — ٥٨	رسالته إلى (مدام دى فرَانكُل) يدافع عن نفسه .
٦٠	إعلان خطبته واحتفاله بزواج (تريز لى ڤاسور) .
٦١ — ٦٢	أخلاق روسو وصفاته .
٦٣	تناقضه الغريب .
٦٣ — ٦٤	أثر البيئة العلمية فى روسو .
٦٥	نجاحه الأدبى : رسائله وكتبه .
٦٥ — ٧١	رسالته فى أثر العلوم والفنون فى تهذيب الأخلاق أو إفسادها .
٧١ — ٧٣	رسالته فى التفاوت أو عدم المساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان.
٧٤ — ٧٩	رسالته فى الإقتصاد السياسى .
٧٩ — ٨٨	كتاب العقد الاجتماعى .
٨٨ — ٩٢	اعترافاته .
٩٣ — ٩٩	سنواته الأخيرة .
٩٩ — ١٠٠	وفاة روسو .
١٠١	أهم المراجع العربية .
١٠١	أهم المراجع الإنجليزية .
١٠٢ — ١٠٣	فهرس الموضوعات .
١٠٤ — ١٠٨	فهرس أعلام النساء والرجال .
١٠٩ — ١١٠	فهرس أعلام الأماكن .

obeikandl.com

فهـــــرس

أعلام الرجال والنساء

(ا)

إبرهيم ، الرسول : ٨٢

أثانسياس بولوس ، الأب : ٣٣

أديسون : ٥٠

أرسطو : ٨١

أفلاطون : ٥٦ ، ٨١

(ب)

باسيل ، مدام : ٢١

بافون : ٤٥ ، ٧٠

باركل : ٢٤

برنارد : ١٠ ، ١١

بطرس الأكبر : ٨٦

بفندورف : ٤١

obeikandi.com

بلوتارك : ٩

بُورْد : ٦٩

بُونْتفِير ، الـكاهن : ١٤ ، ١٨ ، ٢١

بيير ، سانت : ٩٥

(ت)

ترِيزلى ڤاسور : ٤٧ ـ ٦٠ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٣

(ج)

جرِيترى : ٩٥

جِفرسُون ، توماس : ٨٧

جُفرِين ، مدام : ٦٤

جلُوك : ٩٥

جوتييه : ٦٩

جورج الثالث ، ملك انجلترا : ٩٣

جورج ساند : ٨٦

جوفون (الابن) : ٢٤

جوفون (الـكونت) : ٢٤

(د)

داڤيد هيوم : ٨٩ ، ٩٣

دوبين ، مدام : ٤٦ ، ٥١ ، ٦٤

دی إِبنَای ، مدام : ٦٤ ، ٧٧ ، ٩١
دی أَلِمبِير : ٤٥ ، ٦٣
دی بُوزِنفال ، مدام : ٤٦
دِیدْرُو : ٤٥ ، ٥١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٩
دی رِیشِلیُو ، الدوق : ٤٤ ، ٨٠
دی سانت جرمین : ٥٧
دی فرانـكُل ، مدام : ٥٢ ، ٥٧
دی فرسیلیز ، مدام : ٢١
دیكارت : ٤١
دی لَـكسِمبُرج ، المرشال : ٥٩
دی مابْلِی ، م . : ٤٣ ، ٤٤
دی هُلبَاك (البارون) : ٦٤ ، ٨٧
دی وَارِنز (البارون) : ٢٦
دی وَارِنز ، مدام : ١٥ ، ٢٦ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤

(ر)

رُولْهِیر ، م . دی : ٦٥

(ز)

زولِیتاَ : ٤٦

(س)

سِدْنی : ٨١

سقراط : ٨١

سوزان برنار : ٨ ، ٩

(ف)

فازى ، المستر : ١٣

فردريك الأكبر : ٨٧

فنتزنريد : ٤٣

فنتور دى فيلنوف : ٣١

فوسور دى فيلنوف : ٣١

فولتير : ٢٧ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠

(ك)

كارليل ، توماس : ٧٢

كاستل ، الأب : ٤٦

كلفن (جن) : ١٦

كلودآنى : ٣٨

(ل)

لكسمبرج ، الدوق : ٦٤

لمبرسير ، الأستاذ : ١٠

لمبرسير ، الآنسة : ١٠

لنكولن ، أبراهام : ٨٣

لوك ، جون : ٤١ ، ٨١

obeikandl.com

لويس الخامس عشر، الملك : ٨٠
لويس الرابع عشر، الملك : ٨٠
لويس السادس عشر، الملك : ٨٠
ليبنتز : ٤١
لى فاسور، مدام : ٦٦
لى ميتر، م : ٢٨

(م)

مارات : ٧٣، ٨٤
ماريفوكس : ٦٣
مارمُونتِل : ٦٣
مَرْيون (الخادمة) : ٢٢
مُونتِسكيو : ٤٥، ٧٠
مونتيج، السفير الفرنسى، م : ٤٦

(ن)

نابليون : ٨٥

(ه)

هيكل باشا، الدكتور محمد حسين : ٥

(و)

واشنطون، جورج : ٨٣

obeikandl.com

فهـــرس
أعـــلام الأماكن

الباستيل : ٨٠

البندقية : ٤٦

الرومان : ٦٧ ، ٦٨

اليونان : ٦٧ ، ٦٨

آنسى : ١٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٧

أورليان : ٤٧

باريس : ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٧٧ ، ٧٨

باكوس : ١٣

بُرْجون : ٩٣

بُودْرى : ٣٢

بُورِمى : ١٠

بِيدْمُونت : ٢٥

تورين : ١٥

جنيف : ٧ ، ٨ ، ١٢ ، ٧٧ ، ٧٨

ديجون : ٦٥

obeikandl.com

روسيا : ٨٦
سان جِرْمان : ٧١
سردينية : ٢٦
سولور : ٣٣
شارْمِتْز : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤
شامبَرِي : ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٢
شِفرِيت : ٧٨
فرِيبِرْج . ٢٩ ، ٣٠
فِنسِنِيس : ٦٥
كُنفِجنُون : ١٤
لوزان : ٣٠
ليمان، بحيرة : ٢٦
ليون : ٢٨ ، ٣٦ ، ٤٣
مصر : ٦٧ ، ٦٨
مُونـكِين : ٩٣
مونتمورِنسِي : ٧٨
نيون : ١٠ ، ٢٩
هولندة : ٧٨ ، ٨٠

obeikandl.com

كتب للمؤلف

	ص
(١) روح التربية والتعليم	٥٠
(٢) الاتجاهات الحديثة فى التربية	٥٠
(٣) التربية والحياة ، أو كيف نصلح التعليم	٥٠
(٤) التربية الإنجليزية	٣٥
(٥) جان جاك روسو وآراؤه فى التربية والتعليم	٥٠
(٦) جان جاك روسو المصلح الاجتماعى	١٥
(٧) الشخصية	١٥
(٨) فى علم النفس (ج١) بالاشتراك مع الأستاذين : عبد القادر ومظهر	٤٠
(٩) فى علم النفس (ج٢) « مع الأستاذ حامد عبد القادر	٥٠
(١٠) فى علم النفس (ج٣) « « « « «	٦٠
(١١) أروع القصص لشارلز دكنز	١٥
(١٢) قصص فى البطولة والوطنية	١٥
(١٣) الآداب السامية ، مع بحث مستفيض عن اللغة العربية وآدابها (يطبع الآن)	
(١٤) المفصل ، فى اللغة السريانية وآدابها . (طبعة الوزارة) .	
(١٥) الأساس ، فى اللغة العبرية وآدابها بالاشتراك مع المرحوم الدكتور على العنانى ، والأستاذ محرز . (طبعة الوزارة)	
(١٦) أحسن القصص ، فى سبيل الوطن . بالاشتراك مع الأستاذين عبد اللطيف وحسن جوهر	٧
(١٧) « « ، خليفة فى الخيال .	٦
(١٨) « « ، الحصان المسحور .	٦

obeikandl.com